سَلْوَىٰ الحَزِيْنِ

« قصص واقعية »

- حقيقة الحـــزن .
- الأسبـــاب المعينـــة علـــى تجنـــب الحـــزن .
- الأسباب المعينة على تحمل المكروه بعد وقوعه .
- فوائد وثمرات المكروه .

د/ سليمان بن محمد بن عبدالله العثيم



الطبعة الثانية،، مزيدة ومنقحة

سلوى الحزين

قصص واقعية

* حقيقة الحزن .
* الأسباب المعينة على تجنب الحزن .
* الأسباب المعينة على تحمل المكروه بعد وقوعه .
* فوائد وثمرات المكروه .

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

د/ سليمان بن محمد بن عبدالله العثيم

ح سليمان محمد العثيم ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيم، سليمان محمد
سلوى الحزين. /قصص واقعية حقيقة الحزن./ سليمان محمد
العثيم. ط٢..- بريدة، ١٤٣٦هـ
١٩٢ ص، ١٧×٢٤سم
ردمك: ٠- ٦٨٤٦- ٠١- ٦٠٣- ٩٧٨
١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣، ١٩٥٣١٠ ١٤٣٦/٨٠٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٠٤
ردمك: ٠-٦٨٤٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم

المكتب الرئيس: ٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
السويدي، هاتف: ٢٦٧٦٧٠٩ - فاكس: ٢٦٧٦٧٠٩
الربوة، هاتف: ٤٤٥٢٠٤٥ - فاكس: ٤٤٥٢٠٤٥
جدة، هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
بريدة، هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ - فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
الدمام، هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١

موقعنا على الإنترنت: WWW.dar-alqassem.com
البريد الإلكتروني: Sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن من سنن الله الجارية أن هذه الحياة لا تدوم على الحال، والمتأمل في تاريخ من مضى يرى أن هذه السنة لا تتوقف، أممٌ تفنى وأخرى تحيا، وأفرادٌ يولدون، وآخرون يموتون، نصرٌ وهزيمة، عزٌ وذُل، غنى وفقر، رخاءٌ وشدة، صحةٌ ومرض، أحزانٌ ومسرات، وهكذا يُقلب الله الليل والنهار، ويتقلب الخلق بأمر الله من حال إلى حال لتتحقق حكمة الله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، فالخلق خلقه والأمر أمره، ولله في خلقه شؤون.

ومن حكمة الله أن حياة بني الإنسان جُبلت على كبد كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[2] ولذا فإن مكدرات

---

(١) سورة الأنبياء: (٣٥).

(٢) سورة البلد: (٤).

الحياة ومنغصاتها لا تحصى، بل قلَّما تخرج شمس يوم وتغرب إلا ويرى الإنسان مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرَّت يوماً ساءت دهراً، وإن متَّعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرة إلا ملأتها عبرة، وما منحت لشخص في يوم سروراً إلا خبّأت له في يومٍ شروراً، ولله در الشاعر إذ يقول:

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها   صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضدَّ طباعها   متطلبٌ في الماء جذوة نار

وقال آخر:

أُوْمِنُ بالدنيا وأيامها   فإنَّها للحزن مخلوقةْ
غمومها لا تنقضي ساعة   عن ملكٍ فيها ولا سوقةْ
يا عجبي منها ومن شأنها   عدوةٌ للناس معشوقةْ

فينتج من هذا الكدر والمنغصات حزن للإنسان، يكدر عليه صفو السعادة، ويشل حركة نشاطه أو بعضها، ويوهن عن القيام بالواجبات، كما أن للحزن آثاراً وأمراضاً باطنية تتعلق بالنفس البشرية البعيدة الأغوار، الكثيرة الأسرار- وقد ثبت أن الأمراض والعلل النفسية أعظم خطورة من الأمراض الحسية، بل إن الأمراض النفسية تُحدث أمراضاً جسدية كثيرة، ولذا يرى جملة من الأطباء أن قرابة (٥٠٪) من أمراض الناس الحسية سببها الأمراض النفسية، وإن أكثر الأمراض خطورة وشيوعاً ترجع في أسبابها إلى الانفعالات

والأمراض النفسية، كالسكر والضغط وتصلب الشرايين والتجلط والشلل وغير ذلك. نسأل الله العافية .

وفي هذا البحث المتواضع الذي سميته (**سلوى الحزين**) فتحٌ لباب الأمل والتفاؤل وانشراح الصدر والتذكير برحمة الله ومِنَحه، والتوكل عليه، وحسن الظن به والسعي لتقوية الإيمان بالقضاء والقدر، وترويض النفس على التعامل مع المكروه، وتسلية المصاب والحزين، فالأمر لله من قبل ومن بعد، وقد جعلت البحث في ستة فصول:

الفصل الأول: حقيقة الحزن – أعراضه – أنواعه – أسباب كل نوع.

الفصل الثاني: أضرار الحزن على الفرد والمجتمع.

الفصل الثالث : الأسباب المعينة على تجنب الحزن.

الفصل الرابع: الأسباب المعينة على تحمل المكروه بعد وقوعه.

الفصل الخامس: فوائد وثمرات المكروه.

الفصل السادس: نماذج وقصص لمحزونين وكارهين، وعاقبة أمرهم.

وقد استشهدت بالآيات القرآنية، وما ثبت عن هادي البشرية ﷺ ، وما أثر من حكم علماء الأمة، ووصايا علماء التربية والنفس، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها، ولم أفرد المراجع التي استفدت منها بقائمة مستقلة، بل جعلتها في هامش الكتاب.

ولا أنسى هنا أن أسجل شكري وتقديري لكل الإخوة الذين تفضلوا بقراءة مسودة الكتاب ووافوني بملحوظاتهم، فجزاهم الله عني أحسن الجزاء.

والله أسأل أن يرزقني الإخلاص والصواب في القول والعمل، وأن يحقق به النفع، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سليمان بن محمد بن عبدالله العثيم

القصيم – بريدة

البريد الإلكتروني :

smalothaim@hotmail.com

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

أما بعد ..

فهذه الطبعة الثانية لكتابي (سلوى الحزين) بعد نفاد الطبعة الأولى، وقد راجعت الكتاب، وزدت عليه بعض الفوائد، وصححت ما فيه من أخطاء، كما أضفت إليه تسعاً من القصص التاريخية والواقعية، الشاهدة على مضمون الكتاب، وفي ثناياها الدروس والعبر، وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً لعباده، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتبه

سليمان بن محمد العثيم

الفصـــل الأول

حقيقة الحزن - أعراضه - أنواعه - أسباب كل نوع

الحُـزن والحَـزن في لغـة العـرب: مـا غلـظ مـن الأرض، ويطلـق - أيضاً - على خشونة الأرض، وخشونة النفس لما يحصل فيها من الغم، وهو نقيض السرور فيقولون حَزَن الرجل حُزْناً، وحزن بمعنى اغتم[1].

وحقيقـة الحـزن: هـو شـعور نفسـي فطـري يتمثـل في انقبـاض المزاج وفقدان المتعة والسرور لدى الإنسان[2]. وهو ينتـاب كـل إنسـان مـن فـترة لأخـرى حسـب مـا جبـل عليـه مـن الأخـلاق، ومـا يعتريـه مـن نكـد الحيـاة، لـذا فإنـه لا يـدوم في الغالـب، بـل يضمحل مـن تلقـاء نفسه، أو بمقاومة الشخص إياه له بالأسلوب المناسب.

فالحزن والفرح أمران فطريان متضادان خلقهما الله في وجدان الإنسان، يخمد أحدهما بطغيان الآخر عليه وظهوره. قال الله تعالى:

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور (١٥٨/٣)، القاموس المحيط للفيروز أبادي (٢١٣/٤)، الصحاح للجوهري (٢٠٩٨/٥) مختار الصحاح (١٣٤).

(٢) هكذا عرفه جملة من علماء النفس.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾[(١)].

قال عكرمة – رحمه الله – «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً».

أعراض الحزن :

من خلال التتبع اتضح أن أعراض الحزن كثيرة وتختلف من شخص لآخر حسب قوة عزيمته وضعفها، وحسب الحال الموجبة لذلك، ولذا لا تجتمع كل الأعراض في شخص واحد إلا نادراً، ومن تلك الأعراض: ضيق الصدر، وسرعة الانفعال والغضب، والرغبة في البكاء، وضعف الثقة في النفس، واضطراب الكلام، والشعور بتفاهة الدنيا، وطول التفكير، وقد يميل بعض الأشخاص إلى العزلة، والشعور بالملل والضجر، وأحياناً الجنوح إلى الانتقام.

ومن الأعراض البدنية : الإجهاد والخمول، والإحساس بآلام في سائر البدن خاصة صداع في الرأس، وضعف شهية الأكل والجنس، والإمساك الشديد، وتقطع واضطراب النوم، والإحساس بحرارة في أطراف البدن، ... إلى غير ذلك من الأعراض التي يشخصها حاذق الأطباء.

---

(١) سورة النجم : (٤٣).

أنواعــه:

ذكر علماء النفس أن الحزن الذي يعتري النفس نوعان:

الأول: الحزن الطبيعي (الفطري) وهو ضيق الصدر، والشعور بـالغم وانقبـاض المـزاج، وهـذا يعـرض لكـل النـاس علـى اخـتلاف أعمـارهم وطبقـاتهم، ويتكـرر حسب الحـالات العارضـة، ويتفـاوت وقعـه علـى حسب نفسية الإنسان وأحاسيسه وقـوة عزيمتـه، كمـا تتفاوت درجاته في الشدة فقد يبلغ ببعض الناس إلى درجة الانغلاق ، والإحبـاط وإنكـار الـذات، وقـد يدفعـه ذلـك إلى التـصرف الأهـوج، كما قد يستمر أياماً لدى بعض الناس.

أسـباب هـذا النـوع: كثيرة لا حصر لها، جماعها الحـزن علـى فوات محبوب أو حصول مكروه، مع التفاوت الشاسع بين النـاس في قيمة المحزون عليه، وهمة الحازن.

ومـن أمثلـة ذلـك حـزن المـسلم لواقـع المـسلمين ومـا يجـري في مجتمعاتهم من مخالفـاتٍ لشريعة الإسـلام، ومـن التخبط في ظلمـات الجهـل، والخرافـات والـشركيات والبـدع، والحـزن علـى مـا يحـل بالمسلمين من مصائب ونكبات وضياع مجدهم وعليائهم، والحزن لما يقع عليهم مـن قهـر وتضييق وحـروب وبـثّ الفرقـة والخـلاف بينهم، وتسلط أهل الفسق والانحراف عليهم وكحـزن مـن رزق نفسـاً لوامـة على ذنب أصابه، أو ضياع أوقاته هدراً، وكـالحزن لمرضٍ مـزمن أو

تراكم دين أو ظلم وقع عليه، أو ضيق ذات اليد أو كساد تجارة، أو عقوق الأبناء ، أو تسلط الزوجة، أو اعوجاج الزوج أو فقدان مكانة اجتماعية، أو الحرمان والفشل أو الشعور بالخطر وكالحزن على موت عزيز، أو حلول مصيبة في النفس أو الأهل والولد والمال.

وقد يكون الحزن ناتجاً عن الصراع بين واقع الإنسان وطموحه، أو بسبب الانفصام بين واقع الناس والقيم، أو بسبب كثرة الأمراض، أو أسباب وراثية أو بسبب الشيخوخة، فيحس بالوحشة وفقدان الأقران، أو أنه أصبح عالة على غيره، أو بسبب الشعور بالعزلة، أو تراكم الأعمال وعدم القدرة على إدارتها، إلى غير ذلك مما يقع على كل إنسان من كبد الحياة حسبما قُدِّر عليه. وهذا النوع هو المعني بالدراسة من خلال مباحث هذا الكتاب.

النوع الثاني: الحزن المرضي (الاكتئاب) [1] وهو حالة نفسية مرضية تصيب بعض الناس وتختلف شدتها ومدتها من شخص لآخر، وله أعراض وجدانية وذهنية وبدنية وسلوكية، وينقسم إلى أنواع، أوصلها بعض علماء النفس إلى الثمانية، وله أسباب كثيرة متنوعة، منها ما هو مباشر، ومنها ما هو غير مباشر[2].

---

(١) هكذا سماه جمهور علماء النفس.

(٢) ينظر كتاب (أنواع الحزن) (ص١٥) للدكتور محمد الصغير/ وهو كتاب مفيد).

وهـذا النـوع لا تـشمله هـذه الدراسـة المتواضـعة، بـل المصاب بـه بحاجـة إلى مراجعـة الطبيـب النفـسي . نـسأل الله الـسلامة وحـسن العاقبة.

الفصل الثاني

أضرار الحزن على الفرد والمجتمع

لاشك أن للحزن أضراراً على الفرد والمجتمع، ولذا استعاذ منه النبي - ﷺ- كما في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك — رضي الله عنه- قال: «كنت أخدم رسول الله - ﷺ - فكنت أسمعه كثيراً يقول: (**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال**) [1].

والله ركّب الإنسان على ضعف كما قال تعالى: ﴿**وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا**﴾ [2]، ولذا إذا أصابته مصيبة تأثّر في نفسه وجسده، وعلاه الحزن إلا من رحم ربك.

وتتفاوت الأضرار الناجمة عن الحزن من شخص لآخر، وذلك تبعاً لشدة وقع المصيبة من جانب، والاستعدادات النفسية للمصاب من جانبٍ ثانٍ، وقوة أو ضعف الإيمان بالقضاء والقدر من جانبٍ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد. باب من غزا بصبي للخدمة (١٠٥٩/٣) رقم (٢٧٣٦) ط دار ابن كثير — دمشق . بتحقيق د / مصطفى البغاء .

(٢) سورة النساء : (٢٨).

ثالث، ولتكرار الحزن وطول مدته من جانب رابع، وعلى هذا فلا يلزم اجتماع ما سوف أذكره من أضرار في كل محزون ، ومما يمكن ذكره من الأضرار ما يلي:

١- حصول الفتور الذهني وضعف التركيز.

٢- تعطل جذوة الهمة، والمُعبر عنه بـ (الإحباط) وهو شلل للهمة يُقعد المحزون عن التفكير الصحيح والعمل المفيد، بل قد تتعطل جميع أعماله.

٣- سرعة الإجهاد والفتور البدني، والإحساس بالآلام في سائر البدن، خاصة الرأس والمفاصل .

٤- زيادة ضربات القلب.

٥- ضعف شهية الأكل والجنس مع إمساك شديد.

٦- الانشغال عن العبادة أو في أثنائها فلا يؤديها على الوجه الصحيح.

٧- ترك الأمور المهمة بسبب التفكير المستمر.

٨- سوء الظن في الآخر، بل يشتد – أحياناً – الظن فيجزم بأنه يقين.

٩- قد يُوقع الحزن في التشاؤم المستمر، وأحياناً المفرط.

وإذا اشتد الحزن وتأزَّم أو كثر وروده على الإنسان فقد يصاب

بما يلي:

١- الإجهاد الذهني ،الذي قد يؤدي إلى الإصابة بمرض الزهايمر الذي يفقد الإنسان ذاكرته.

٢- الشيخوخة المبكرة، وذلك بالإصابة بالضعف الشديد في جميع أجهزة البدن مع الضعف المفرط في الشهية.

٣- الإصابة ببعض الأمراض المزمنة الخطيرة، كتعطل البنكرياس أو تقرحات المعدة أو الأمعاء أو الإصابة بمرض الكلى... إلخ.

٤- سرعة الانفعال والغضب لأتفه الأسباب، وقد ينتج عن ذلك تصرف أحمق.

٥- الإصابة بالقلق وتوتر الأعصاب، وقد يتحول الحزن الطبيعي إلى مرض نفساني [الاكتئاب] .

هذه جملة من الأضرار على الفرد.

أما الأضرار على المجتمع فمنها :

١- انشغال الأهل بهذا المحزون، وقد تُتْرك مصالح كثيرة بسبب مراعاة حالته النفسية.

٢- نقصان أو تضاؤل إنتاج المصاب مما يسبب تعطيل أو تأخر سير أعمال المجتمع، مثل لو كان موظفاً أو عاملاً أو نحو ذلك.

٣- قد يحمله الحزن على الغضب الشديد مما يسبب الاعتداء على ممتلكات الناس أو أبدانهم.

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام، العناية بالأطفال من جميع الجوانب الصحية، خاصة النفسية لما له من الأثر على بناء شخصياتهم فقد يهمل الوالدان هذا الجانب فينشأ طفلاً معقداً محزوناً، يكابد أضرار الحزن، وبالتالي ينقم على أهله والمجتمع من حوله، وقد يستمر يعاني من تلك الأضرار طيلة حياته، **ومن جملة النصائح التي تذكر هنا لتستقيم نفسية الطفل ما يلي:**

١- أن تكون علاقة الأبوين ببعضهما علاقة طيبة تتسم بالدفء والمودة وحسن التعامل، ومن الخطأ الفادح أن يكون شجار الزوجين ومناقشتهما الحادة أمام الأطفال.

٢- لابد أن يعلم الأبوان أن الطفل الصغير، هو صغير في جسمه، صغير في مشاعره وعواطفه وأحاسيسه، فيجب مراعاة ذلك حال التربية، فلا يمكن معاتبة الطفل الصغير كما يعاتب الكبير لا من جهة السبب ولا في نوع العقاب.

٣- إشعاره بالمودة والمحبة، وذلك بملاطفته، وملاعبته، والدفاع عنه، وشراء الهدايا والألعاب الخاصة به، فقد أثبتت الدراسات النفسية أن الحرمان من الحب والرعاية للطفل من أعظم الأسباب للأمراض العصبية والنفسية، بل قرَّر جملة من الأطباء

أن الحرمان الحسي في الطفولة المبكرة يعيق نمو الطفل من جميع النواحي.

٤- أن يعامل الوالدان أطفالهم بعدل دون تفرقة، وبهذا يصبحون أكثر وديّةً وشعوراً بالرضا النفسي.

٥- على الوالدين تنبيه الأطفال على الأخطاء السلوكية برفق دون صراخ ورفع صوت أو إعطاء الخطأ أكبر من حجمه، ولاشك أن القدوة الحسنة أكبر عامل للتربية، وبهذا يتعلم الطفل السلوك الحسن من والديه.

٦- عدم القسوة عليه في العقوبة، بل لا تقدم على العقاب إلا بدليل قوي على خطأ المعاقب، وإنك أن تخطيء في العفو مائة مرة أفضل من أن تخطيء في العقوبة مرة واحدة.

٧- الحذر ثم الحذر من معاتبة الطفل أمام الآخرين وإن كانوا إخوته الصغار، فهذا الأسلوب يكسب الطفل تأصل التعنت والإصرار على الخطأ.

٨- تشجيعه عندما يحرز نجاحاً ، أو عندما يرضي والديه، ويحسن أن يثنى عليه أحياناً بدون مبالغة أمام الملأ ليتشجع وترتفع معنوياته، وتكون حافزاً له للسعي قدماً ، وقد ثبت من خلال الدراسة والتجربة لدى علماء النفس والتربية أن التشجيع يعطي نتائج أكثر من التوبيخ.

٩- لا تُذكِّر الطفل بذنب أو خطأ سلف منه، فهذا يحطمه، ويجعله عرضة لعدم الثقة بالنفس، وقد يستمرئ الأخطاء السالفة ثم تكون ديدناً له.

١٠- إعطاء الطفل فرصة للتعبير عن رأيه ، وتشجيعه لإبداء وجهة نظره، ويحسن بالوالدين أو المربي الإنصات عندما يعبر الطفل عن رأيه، وشكره على الإبداع وحسن التفكير.

الفصل الثالث

الأسباب المعينة على تجنب الحزن

يؤمن المسلم إيماناً جازماً أن ما يصيبه في هذه الحياة إنما هو بقدر الله – عز وجل – وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فالله كتب ما قدر في هذا الكون، كما قال تعالى: ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [(١)].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: (**إن الله قد كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**) [(٢)]، ومع إيمان المسلم بالقدر خيره وشره إيماناً يقيناً، فهو يؤمن كذلك بمشروعية الأخذ بالأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل، فالله – عز وجل – أمر بالسعي في طلب الرزق حيث قال: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن**

---

(١) سورة الحديد (٢٢).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠٤٤) رقم (٢٦٥٣) والترمذي في باب القدر رقم (٢١٥٧).

فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [(١)] وقال عز من قائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [(٢)]، وقال النبي - ﷺ -: (**احرص على ما ينفعك ولا تعجز**)[(٣)] ومن هذا الباب يُشرع للمسلم الأخذ بالأسباب المعينة على تجنب الحزن، وقد يقال ما الحيلة في تجنب الحزن وهو أمر جبلي فطري؟

فالجواب: من المعلوم أن حياة كل إنسان لا يمكن أن تنفك عن الحزن، لأنه أمر فطري، نتيجة لما يلقاه من كبد الحياة فلا ينقطع الحزن إلا عندما يستقر المؤمنون في الجنة فيقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [(٤)].

لكن المراد هنا في - هذا الفصل - ذكر الأسباب المعينة على تجنب مواطنه، ولما كان في مقدور الإنسان تجنبها نهى الله نبيه - ﷺ - عن الاستسلام للحزن في ثمانية مواضع من كتابه العزيز قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ [(٥)] وقوله عز وجل: ﴿

---

(١) سورة الجمعة (١٠).

(٢) سورة الملك: (١٥).

(٣) أخرجه مسلم في باب القدر رقم (٢٦٦٤).

(٤) سورة فاطر: (٣٤- ٣٥).

(٥) سورة آل عمران: (١٧٦).

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾[١].

وقوله عزَّ من قائل: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٢] كما نهى المؤمنين أن يحزنوا وهم الأعلون كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وذلك لما يترتب على استمرار الحزن من أضرار، فالنهي عنه دليل على دخوله تحت الوسع، وإلا لما نهى الله عنه، لأنه لا يمكن النهي عن المحال، فالمسلم يتلقى المكروه والمضار بالمقاومة لما يمكنه مقاومته، وتخفيف ما يمكنه تخفيفه، والصبر لما ليس له عنه بدٌّ.

والمقصود هنا ذكر الأسباب المعينة على تجنب الحزن ليسعى

---

(١) سورة المائدة: (٤١).

(٢) سورة يونس (٦٥) وبقية المواضع كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الحجر (٨٨) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ النحل (١٢٧) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ النمل (٧٠) وقوله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ لقمان (٢٣) وقوله ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ يس (٧٦).

(٣) سورة آل عمران (١٣٩).

الإنسان في تحصيلها، والتوفيق بيد الله ، والإنسان كما قيل: طبيب نفسه، ومن تلك الأسباب المعينة :

أولاً: السعي لزيادة الإيمان وتحقيقه في النفس: فالإيمان أعظم نعمة يهبها الله لمن شاء من خلقه ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾[1]، فهو نعمة تزكي العمر، وتبارك الحياة، وترفع قلب المؤمن عن هذه الدنيا وزخرفها إلى التعلق بربه والسعي لمرضاته، كما أن الإيمان يمنح المرء قوة العزيمة وارتباطاً بالقوي العزيز – جل وعلا – وذلك لأن المؤمن موقن أن الأمور بيد الله – عز وجل – فإليه يرجع الأمر كله، وأن النفع والضر بيده –سبحانه – فلا يتوكل إلا عليه، ولا يرجو إلا إياه، كما أنه موقن تمام اليقين بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2].

أما البشر فمهما امتلكوا من القوة فهم ضعفاء، بل يتناهى ضعفهم إلى حد قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[3] كما يوقن المؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه الحكيم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي

---

(١) سورة الحجرات (١٧).

(٢) سورة يونس : (١٠٧).

(٣) سورة الحج : (٧٣).

القيوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، فاستشعار المرء لأسماء الله وصفاته يمنحه الرضا بما قضاه، والطمأنينة بما قدره، وحسن التوكل عليه، فلا محل للحزن لدى المؤمن وهو يوقن بأن رحمة الله وسعت كل شيء، وبيده وحده مفاتح الرحمة ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] فلم الحزن والقلق وأزمَّة الأمور كلها بيد الله؟ فهو العليم، وهو الحكيم، وهو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الخبير وهو اللطيف وهو السميع البصير القادر الفعال لما يريد، ولذا يقوم المؤمن بعبادة ربه حباً وتعظيماً لخالقه، ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه مخلصاً له الدين، متبعاً هدي نبيه ﷺ. فهو يتلذذ بتلك العبادة تلذذاً عظيماً، وهذا هو الذوق الإيماني الشرعي الذي ذكره الرسول ﷺ بقوله: **(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيناً)** [2]، ويقول ﷺ: **(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)** [3] هذا الإيمان يمنح المسلم الهدوء

---

(١) سورة فاطر: (٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (٦٢/١)، والإمام أحمد في المسند (٢٠٨/٦)، والترمذي في سننه (١٢٦/٤) وقال حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (٦٠/١)، ومسلم في كتاب الإيمان (٦٦/١)، والترمذي في الإيمان (١٢٧/٤).

والطمأنينة، والراحة النفسية، فيكون قرير العين، مسرور النفس، يؤدي جميع أعماله بنفس راضية هانئة قانعة بما قسم الله لها، وهذه هي الحياة الطيبة التي ذكرها الله في كتابه بقوله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [١]. قال ابن القيم – رحمه الله – : (وقد فُسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا والرزق الحسن وغير ذلك، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان، ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح، فإنه ملكها وهذه الحياة تكون في الدور الثلاث، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار)[٢] وجماع القول فإن الإيمان بالله، والاستسلام له، والتزام تقواه، واتباع الهدى، وعمل الصالحات من أعظم الأسباب المنجية من الحزن، وذلك لحلول السعادة والطمأنينة في القلب فلا محل للحزن حال وروده، بل كلما ازداد إيمان العبد كلما تلاشى الحزن تلقائياً، حيث يضمحل ويذوب كما يذوب الملح في الماء؛ حتى يكون كأنه لم يرد على النفس أصلاً. ومصداق ذلك

---

(١) سورة النحل: (٩٧).

(٢) مدارج السالكين (٢٢٣/٣) ط دار الكتاب العربي – بيروت. تحقيق محمد المعتصم بالله.

في كتاب الله في عدَّة آيات، جديرة بحسن التأمل ليحصل الانتفاع.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

وقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[5].

وقال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) سورة الأحقاف: (١٣).

(٢) سورة الأعراف: (٣٥).

(٣) سورة الأنعام: (٤٨).

(٤) سورة البقرة: (٣٨).

(٥) سورة البقرة: (١١٢).

يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[(١)].

وقد يتبادر أن الجزاء الوارد في الآيات يكون في الآخرة، والصواب أن ذلك يشمل الدنيا والآخرة، وفضل الله واسع.

ثانياً: الصدقة، والإنفاق في سبل الخير ابتغاء وجه الله، ففي الصدقة والإحسان إلى الخلق انشراح للصدر، ومتعة للنفس، وتنفيس للكُرب، وبعدٌ عن الشح، وهما برهان على الإيمان، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء، واليد العليا خير من اليد السفلى، وأثر الصدقة على النفس، وإحداث الطمأنينة والنشوة أمر مجرب، وتأمل نفسك، فاليوم الذي تتصدق فيه ليس كحال اليوم الذي لا تتصدق فيه، وفي نص القرآن أنه لا خوف ولا حزن يرد على المنفقين قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) سورة يونس: (٦٢- ٦٣).

(٢) سورة البقرة: (٢٦٢).

يَحْزَنُونَ ﴾(١).

قال ابن القيم – رحمه الله – : (فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به، لأنهم جربوه)(٢).

ثالثاً: الإكثار من ذكر الله، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر، وطمأنينة النفس، وارتياح الضمير، ونزول السكينة، وزوال الهم والحزن عن القلب قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٣). ولهذا أمر الله عباده المؤمنين به فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾(٤) وإن من أعظم الذكر التعبد لله بتلاوة القرآن، فيا سعادة من جعل اللهُ القرآنَ ربيع قلبه، ونور صدره، وجلاء حزنه وذهاب همه وغمه، وسائقه إلى رحمته ورضوانه قال ﷺ : (**لا يقعد قوم في مجلس يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت**

---

(١) سورة البقرة: (٢٧٤).

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (٣٩).

(٣) سورة الرعد: (٢٨).

(٤) سورة الأحزاب: (٤١- ٤٢).

عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) [١] ومن الأذكار البالغة الأهمية، والجديرة بالملازمة أذكار طرفي النهار قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [٣] والمراد بالغدو والإبكار: أول النهار، والمراد بالعشي والآصال: آخره. وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [٤] ومن رحمة الله وفضله على عباده بيان رسول الله ﷺ جزاء القائل لكثير من الأوراد حتى تنشط همته للقيام بها، مثال ذلك قوله ﷺ: **(من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه)** [٥] وكذلك قوله ﷺ: **(سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك**

---

(١) أخرجه مسلم في باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم الحديث(٢٧٠٠).

(٢) سورة الأعراف: (٢٠٥).

(٣) سورة غافر: (٥٥).

(٤) سورة ق: (٣٩).

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء رقم الحديث (٢٦٩٢).

من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لـي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها حين يمسي فمات مـن ليلتـه دخل الجنة، ومن قالها حين يصبح، فمات من يومه دخل الجنة)[١].

ومن ذلك قوله ﷺ : **(من قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ، كان حقاً على الله أن يرضيه)**[٢] فإن التزام المسلم للأوراد الشرعية يكسبه الراحة النفسية، والطمأنينة، والشعور بالأمان والحفظ وهذا أمر مجرب[٣].

رابعاً: تجنب المثيرات التي تسبب الشجار والخصام، وإذا بُليتَ بشيءٍ من ذلك فسارع إلى حل المشكلة التي تعرض لك حتى لا تصبح قضية مقلقة ملازمة، فينتج عنها الحزن والقلق، وإن أوسع أبواب حلِّ المشاكل العارضة الصلح والعفو ففي العفو راحة وسيادة والله عزَّ وجلَّ رتَّب الأجر على العفو فقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في الدعوات، باب فضل الاستغفار (٨٣/١١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في الدعوات رقم الحديث (٣٣٨٦).

(٣) اشتملت كتب السنة على أبواب وفصول للأذكار، كما ألف بعض العلماء كتباً خاصة في ذلك من أيسرها:

- الأذكار النووية للإمام النووي بتحقيق الأرناؤوط.
- تحفة الذاكرين للإمام الشوكاني .
- الوابل الصيب من الكلم الطيب للحافظ ابن القيم تحقيق الأرناؤوط.

مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [١] وقال تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [٢]

وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [٣]

وإذا عفا الإنسان عن حقه أو بعضه فأقل ما يحصل له السلامة من الحزن وتبعاته، ولهذا تسلم له صحته، ومن فعل ذلك فهو العاقل حقاً، وإلا بقي رهين الحزن يكابد أضراره من حين إلى حين.

خامساً: الإكثار من الاستعاذة من الحزن، وهذا هو هدي المصطفى - ﷺ - فقد روى أنس بن مالك قال: كنت أخدم رسول الله- ﷺ - فكنت أسمعه كثيراً يقول: (**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال**) [٤] وعلى الإنسان أن يسأل ربه العافية من موجبات الحزن فما أعطي العبد عطاءً بعد الإيمان أفضل من العافية. قال بعض السلف: (جرّبتُ اللذات كلها فلم أجد ألذَّ من العافية).

فالدعاء أمره عظيم، فمنه ما هو طلب للوقاية من المكروه،

---

(١) سورة الشورى: (٤٠).

(٢) سورة البقرة: (٢٣٧).

(٣) سورة الأعراف: (١٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (١٠٩٥/٣) رقم (٢٧٣٦) ط دار ابن كثير- دمشق. تحقيق د / مصطفى البغاء.

ولذا كان من دعائه ﷺ **(وقني شر ما قضيت)**[1] ومن الدعاء ما هو علاج لرفع المكروه بعد وقوعه وسوف يأتي بيانه[2].

سادساً : تعويد النفس على التماس الأعذار لأخطاء الآخرين، وبذلك يكون الإنسان سليم الصدر وتحصل له الراحة التامة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتوفيق الله ثم ترويض النفس على ذلك، فإذا علم المرء أن الله جبل الناس على الوقوع في الخطأ ، كما خلقهم متفاوتين في العقول والأخلاق والأحاسيس والمشاعر، والمروآت والتربية والكرم والهمة إلى غير ذلك من الخصال، فإذا تيقّن ذلك، فإن عليه أن يلتمس الأعذار لهم قال أبو قلابة – رحمه الله– : (إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل لعل لأخي عذراً لا أعلمه)[3].

سابعاً: الاتصاف بحسن الخلق: فلا حسب كحسن الخلق، وحقيقة حسن الخلق كما قال الحسن البصري – رحمه الله- : (بذل المعروف، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه) وقد سُئلت عائشة – رضي الله عنها– عن خلق رسول الله ﷺ – فقالت: (كان خلقه

---

(١) أخرجه أبو داود. رقم الحديث (١٤٢٥) ، والترمذي. رقم الحديث (٤٦٤) وقال : حديث حسن.

(٢) ينظر رقم (٨) في الفصل الرابع (الأسباب المعينة على تحمل المكروه بعد وقوعه) ص(٦٣).

(٣) حلية الأولياء (٢/٢٨٥).

القرآن)[1] أي متمسكاً بآدابه وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن.

وعن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: **(ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلقٍ حسن ...)**[2].

وقال ﷺ: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)**[3].

والخلق وإن كان جبلياً، إلا أن من عباد الله من وفقوا لاكتساب الأخلاق الحسنة، وذلك بترويض النفس ومحاسبتها على الأخطاء، ومخالطة من حسنت أخلاقهم. والمتأمل في شأن الخُلق يدرك أن الدين كله خُلق فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في الدين، وحسن الخُلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل.

فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى والحلم والأناة وعدم الطيش والعجلة.

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل.

والشجاعة تحمله على إخراج المحبوب ومفارقته.

---

(١) أخرجه مسلم رقم الحديث (٤٦٧) وابن حبان في صحيحه رقم (٢٥٥١).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٠٠٢) وأبو داوود رقم (٤٧٩٩) وصححه ابن حبان رقم (٤٨١).

(٣) رواه أبو داود رقم الحديث (٤٦٨٢) والترمذي رقم (١١٦٢) وصححه الألباني - رحمه الله- في السلسلة الصحيحة رقم الحديث (٢٨٤).

والعــدل يحملـه علـى اعتـدال أخلاقـه وتوسـطه بـين الإفـراط والتفريط، وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهـو وسـط بينهـا، وطرفـاه خلقـان ذميمـان، فـالجود يكتنفـه خلقـا البخـل والتبذير، والتواضع يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو)[1].

ومن حسن الخُلق ألا يكثر الإنسان من المزاح، ولا يمزح مع من هو أكبر منه سناً أو علماً أو مقاماً، ولا يُقعِّر في المزاح، ولا يمزح مع من لا يعرف سجيته.

الله أكبر !! كم جلب حسن الخلق للمرء من الفضائل والمحامد ومحبة الخلق والراحة والطمأنينة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وكـم جلـب سـوء الخلـق للمـرء مـن المـذام والـشقاء والتحاسـد وبغـض الخلـق حتـى أقـرب النـاس إليـه، وكـم جلـب مـن الأحـزان والأكدار وسوء العاقبة، نسأل الله العافية .

ثامناً: ومما يباعد من الوقوع في مواطن الحزن النظـر إلى عموم المسلمين بمنظـار المحبـة والـشفقة، فالمسلم يألف ويؤلف، والكلمـة الطيبـة مفتـاح القلـوب وعنـوان النجـاح، دون التـدخل في شؤونهم الخاصـة، وبهـذا يكتسب محبـة النـاس، فمـن زرع المحبـة جنى المحبة، ومن زرع حنظلاً جنى حنظلاً.. وكما تدين تدان.

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٩٤).

فالمسلم يتعبد لله بمحبة إخوانه والقرب منهم، وتجسيد الأخوة الإسلامية إلى واقع عملي، وذلك بنفع أخيه وبذل النصيحة له، والذب عن عرضه وستر عورته، وسد خلته وتنفيس كربته، والعطف عليه، وليست الأخوة مؤانسته فقط وقت السعة والرخاء ثم تعود إلى معاداة في حال اختلاف وجهات النظر واختلاف الرأي فحينئذ تنسى الأخوة وواجباتها.

فالأخوة الإسلامية الصادقة أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك لقول النبي ﷺ: (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)[1].

تاسعاً: ومما يباعد المسلم من الوقوع في مواطن الحزن القناعة بما آتاه الله، فالمسلم يقنع بما قسم الله له من جسمٍ ومالٍ وزوجةٍ وولدٍ وسكنٍ ومركبٍ، لأنه يعلم أن هذه الأعطيات مقدرة من الحكيم العليم قال تعالى: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[2]، وكما يُعلم –أيضاً– أنها امتحان من الله كما قال تعالى على لسان نبيه

---

(١) أخرجه البخاري (١/٥٣)، ومسلم رقم الحديث (٤٥)، والترمذي رقم (٢٥١٧).

(٢) سورة الزخرف (٣٢).

سليمان: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ ﴾[١]، فكم من أناس أعطوا أموالاً وأولاداً ونعيماً فكانت سبب شقائهم وتعاستهم، لأنهم لم يقوموا بحقها الذي أوجبه الله فكانت تلك الأعطيات عذاباً ووبالاً عليهم في الدنيا كما قال تعالى عن فئة من الناس ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢]..

فليس الغنى عن كثرة الأموال، وإنما الغنى غنى النفس كما نصَّ على ذلك المصطفى ﷺ حيث قال: **(ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس)**[٣].

ففي القناعة طمأنينة النفس وارتياحها، وقيمة المرء حقاً إنما تكون بتقواه، ونفعه للآخرين وأخلاقه الجميلة، لا بما يملك من أموال وجاه، قال الرسول ﷺ: **(قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه)**[٤]، ولو لم يأت من القناعة إلا راحة النفس وسلامتها من الوقوع في أوحال الذل والإهانة لكفى، فكم أذل الطمع أعناق الرجال، وكم من نفسٍ أشقاها بالتأسف والتعب وطول الحزن، والله المستعان.

---

(١) سورة النمل (٤٠).

(٢) سورة التوبة (٥٥).

(٣) أخرجه البخاري رقم الحديث (٦٤٤٦)، ومسلم رقم الحديث (١٠٥١).

(٤) أخرجه مسلم رقم الحديث (١٠٥٤)، والترمذي في كتاب الزهد رقم الحديث (٢٣٤٩).

قال ابن الجوزي– رحمه الله – :«لا عيش في الدنيا إلا لقنوعٍ باليسير، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم، وتَشتت القلب، واستعبد العبد، أما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه ولا يبالي بمن هو مثله، إذ عنده ما عنده»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ : مَنْ قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.

عاشراً: ومن الأسباب المعينة على القناعة ترويض النفس على أن لا تنظر إلى من هو أعلى منها وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ بقوله:

"انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله"[2].

وقال الشاعر:

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن ... على حالة إلا رضيت بدونها[3]

الحادي عشر: ومما يباعد من الوقوع في مواطن الحزن معاملة الناس على قدر عقولهم، فمن أسباب السلامة والراحة من التبعات هو التعامل مع الناس من منطلق البصيرة والوعي والحكمة، وبذل المعروف، والإعراض عن الجاهل، ومن الكياسة

---

(١) صيد الخاطر ص (٦٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٩٦٣).

(٣) وفيات الأعيان . لابن خلكان (٢ /١٥٦).

وحسن الديانة في هذا الباب أن يعمل المسلم المعروف لا يرجو ثواباً إلا من الله – عز وجل – لذا يا أخي لا تنتظر الشكر من أحدٍ عملتَ له إحساناً، بل عليك توطين النفس بمقابلة الإساءة بالإحسان، ومن كانت هذه حاله فلا يبالي بترهات السفهاء، والقيل والقال، والوقوع في عرضه، واتهامه بما ليس فيه، وقد يقع ذلك من أقرب الناس إليه، أو ممن أحسن إليهم، لكن ليعلم من وقع له شيء من ذلك حقيقة مهمة وهي أن الشجرة التي لا ثمر لها لا يرميها الناس بالحجارة. لذا يجب المضي في الطريق الصحيح ولا تلتفت إلى بُنيات الطريق، ولو أن كل شخصٍ أحجم عن المضي في سبيل الإحسان لوجود من يعيبه ويضع العوائق في طريقه، ويتهم مقاصده لتعطلت مصالح كثيرة في دنيا الناس، ومن الذي سَلِم من أذية أنذال الخلق ونهش ألسنتهم؟ فلم يسلم منهم حتى من خلقهم ورزقهم ونعمه تترى عليهم ليل نهار- تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً - .

فتأمل هذا الأمر كي تستريح من أحزان وهموم كثيرة، وليكن دليلك وحاديك قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1].

---

(١) الأعراف: (١٩٩).

الثاني عشر: ومما يباعد عن الوقوع في مواطن الحزن شكر الله عز وجل على السراء، فإن القيام بشكر النعم الموجودة سببٌ لبقائها، وجلبٌ للنعم المفقودة، وهذا وعدٌ صادق لا يخلف من الملك الجواد، قال عزَّ وجل ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1] ولهذا تزداد مسرات بعض الناس يوماً بعد يوم، بل تجده مطمئناً مغتبطاً بما آتاه الله، وإذا تأملت أحواله المادية وجدته كفافاً أو دون ذلك، وإذا تأملت بعين البصيرة وجدت أن السر في ذلك قيامه بشكر المنعم المتفضل، فرزقه الله القناعة والرضا بما أوتي، وهذا والله هو الغني حقاً، فجدير بمن رزق حظاً من التوفيق مراعاة تلك النعم وحفظها، وحمايتها من الزوال، وذلك بالشكر للمنعم المتفضل، كما أن في شكر الله – تعالى – على السراء يكون سبباً لمعرفة الله لعبده في الشدّة، وإعانته وتوفيقه عندما تنزل به نازلة، كما في وصية النبي ﷺ لابن عباس: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[2].

الثالث عشر: ومما يباعد عن الوقوع في الحزن التفاؤل، وهو الاستبشار المفرح، والمقوي للعزيمة بأن العاقبة ستكون خيراً- إن

---

(١) سورة إبراهيم: (٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/٢٩٣) وقد تكلم ابن رجب – رحمه الله – على هذا الحديث بكلام نفيس: في كتابه "جامع العلوم والحكم".

شاء الله- ، فالتفاؤل يُسرِّي عن النفس، ويفتح لها آفاقاً عظيمة، وأبواباً مؤصدة، ويقود إلى الإنتاج والفرحة والسرور، وقد ذكر بعض المختصين النفسيين: «أن أعلى مراتب التفاؤل توقع الشفاء عند المرض، والنجاح عند الفشل، والنصر عند الهزيمة، وتوقع تفريج الكروب، ودفع المصائب، وزوال النوازل عند وقوعها، والأمل والثقة تطردان أفكار مشاعر اليأس والانهزامية والعجز»[1] التي تسبب الحزن للقلب لا محالة.

فما أطيب التفاؤل المعتدل الفاتح لباب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والمسلم واثق بربه، مؤمن بوعده ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[2] فلا يستبطئ الفرج ولا يستعجل النجاح ولا يقلق على المستقبل، فأزمَّة الأمور بيد الله المتفرد بالخلق والتدبير سبحانه.

ولنا في رسول الله - ﷺ - أسوة حسنة، فقد كان يعجبه الفأل، وكان إذا دخل على مريضٍ يعوده قال: (**لا بأس طهور إن شاء الله**)[3].

---

(١) ينظر: كتاب "الطريق إلى الصحة النفسية عند ابن القيم الجوزية" للدكتور: عبدالعزيز الأحمد.

(٢) سورة :الانشراح: (٥- ٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/١٠٣).

فما أفضل أن يعيش المرء يومه متفائلاً حتى في الظروف الصعبة، فلا يحزن على الماضي، ولا يقلق على المستقبل، وأن يحاول تكييف نفسه وفقاً لما هو كائن بدلاً من أن يحاول تكييف ما يحيط به وفقاً لما يريد أن يكون، وأعني بذلك أقدار الله النازلة، التي لا حيلة للإنسان في دفعها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الرابع عشر: ومما يباعد عن الوقوع في مواطن الحزن أخذ الأمور بأناة ورفق وحسن تدبير، فمن الأسباب الجالبة للحزن لدى بعض الناس العجلة في اتخاذ القرار، فمن الناس بمجرد ما تعنُّ له فكرة أو خاطرة يباشر في تنفيذها دون دراسة وتخطيط، وتأمل في الإيجابيات والسلبيات، فيحصل له ندامات كثيرة وحزن ربما كان عميقاً عندما تكون النتائج عكسية. فيجب أن يُعلم أن كل إنسانٍ ترد عليه في كل يوم عشرات الخواطر والأفكار والطموحات والأمنيات، لكن لابد لإخضاع تلك الخواطر لدراسة عميقة، واستخارة[1] واستشارة لذوي الرأي والتجارب، فالدراسة تحدد الهدف بدقة، وتبين الوسائل والإمكانات، وهل الهدف ملائم لقدرات صاحبه؟ وهل الزمان والمكان مناسبان؟.

إن التخطيط المدروس هو طريق النجاح – بإذن الله – لأي عمل

---

(١) كما في حديث جابر –رضي الله عنه – الذي أخرجه البخاري (٣/٤٠).

يقدم عليه الإنسان، سواءً في أمور الدعوة أو المسكن أو المشاريع التجارية أو السفر أو غير ذلك[١] .

أما العجلة فإن العرب كانت تسميها (أم الندامات) ، قال ابن حبان البستي (العجلة موكل بها الندم، وما عجل أحدٌ إلا اكتسب ندامة واستفاد مذمة، لأن الزلل مع العجل، والإقدام على العمل بعد التأني أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه، ولا يكون العجول محموداً أبداً) [٢].

قال ﷺ : (**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**) [٣] فاللبيب هو الذي لا يقدم على قول أو فعل حتى يفكر بالعواقب ويقارن بين المصالح والمفاسد، وهذا في الغالب يتطلب الاستشارة، خاصة في الأمور التي لا خبرة للمرء فيها، فهو بحاجة إلى آراء مختصين، – ونحمد الله – ما أكثر التخصصات في الأمور العلمية والعملية في حياتنا الحاضرة.

الخامس عشر: ومما يبعد عن مواطن الحزن الاشتغال بما يفيد،سواء في أمر دينه أو دنياه. فإن إدراك الإنسان لقيمة الزمن

---

(١) انصح في هذا الباب بقراءة الرسالة المفيدة بعنوان (طريق النجاح) للأستاذ/ راشد بن حسين بن عبدالكريم.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص (٢١٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٥٩٤).

ليس إلا إدراكاً للغاية التي خلق من أجلها، وهذا ما يؤمن به المسلم، فهو موقن بأنه لم يخلق عبثاً، ولن يترك سدى، بل خلق لحكمة عظيمة بينها الله غاية البيان بقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

وهذه العبودية التي من أجلها خلق الله الجن والإنس، قد ساء فهمها لدى بعض الناس، فحصروا مفهومها بالشعائر التعبدية الظاهرة ليس إلا، وهذا خطأ فادح في مفهوم العبادة، فالعبادة تشمل كلما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[2] فهي تشمل الاعتقاد الحق في الله ورسوله ودينه، والصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الخلق، والصدق والأمانة، والوفاء بالعهود وطلب العلم، وطلب الرزق والأكل والشرب والنوم، والترويح عن النفس، وتربية الأولاد ومعاشرة الزوج والنكاح، والمزاح الذي لا ضرر فيه، والابتسامة في وجه المسلم، وغير ذلك من الأعمال والأقوال مما يحبه الله ويرضاه.

---

(١) سورة الذاريات (٥٦- ٥٨).

(٢) سورة الأنعام (١٦٢- ١٦٣).

فالعبادة الشاملة لكل ما يقوم به العبد مما يبتغي به وجه اللّه، فالحياة كلها عبادة، بل كل حركة أو سكون أراد به العبد التقرب إلى اللّه، يثاب عليه بقدر نيته وإخلاصه.

فاشتغال المسلم بما يفيد خالصاً لوجه اللّه، له منافع كثيرة تعود عليه في الدنيا والآخرة قال ﷺ : (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**)[1] قال ابن الخازن – رحمه اللّه – :«النعمة ما يتنعم به الإنسان ويستلذه، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل، فمن صح بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يَسْعَ لصلاح آخرته فهو كالمغبون في البيع.

والمقصود أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير مَحَالهما، فيصير كل واحد منهما في حقه وبالاً، ولو أنهم صرفوا كل واحد منهما في محله لكان خيراً لهم، أيَّ خير»[2].

«وأشار ﷺ بقوله (**كثير من الناس**) إلى أن الذي يوفق لذلك قليل فالموفق العاقل من عرف كيف يستفيد من فراغه وصحته، ويضعهما في الموضع الذي يحقق له وللبشرية جمعاء السعادة في الدارين، فإن كان كذلك فهو المغبوط وإلا فإنه هو المغبون

---

(١) أخرجه البخاري رقم الحديث (٦٤١٢).

(٢) حاشية الخازن على سنن ابن ماجة (٢/١٣٩٦).

الخاسر، فالصحة يعقبها السقم، والفراغ يعقبه الشغل، فهما رأس مال الإنسان، فإما أن يحسن استثماره فيربح مع سلامة رأس المال، وإما أن يسيء استعماله، فيخسر مع ضياع رأس المال، وبالتالي ضياعه هو خسرانه»[(١)].

قال ابن القيم – رحمه الله – :«وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب، فمن كان وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته»[(٢)].

وقد أشار الإمام الرباني الحسن البصري – رحمه الله – من قبل إلى هذا المعنى فقال:«يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك»[(٣)] وما أبلغ قول الشاعر إذ يقول:

وما المرء إلا راكب ظهر عمره ... على سفر يفنيه باليوم والشهر
يبيت ويضحي كل يومٍ وليلةٍ ... بعيداً عن الدنيا قريباً من القبر

---

(١) سوانح وتأملات في قيمة الزمن ص (١٨- ١٩) الأستاذ / خلدون الأحدب.

(٢) الجواب الكافي ، ص(١٨٤).

(٣) حلية الأولياء للأصفهاني (٢/١٤٨).

فالحاصل أن الفراغ والبطالة داء قاتل، ينتج عنه مشاكل كثيرة على الفرد والمجتمع، منها ما نحن بصدده وهو الحزن والكآبة وطول التفكير[(١)].

السادس عشر : ومما يبعد من الوقوع في الحزن أن يعيش الإنسان في حدود يومه فقط، فلا تحزن على يوم أمس، لأنه مضى بحلوه ومره، ولا تقلق على مستقبلٍ لأنه غيبٌ أمره إلى الله قال العلامة السعدي – رحمه الله –: «ومما يدفع به الهم والقلق اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهم والحزن، فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردها ولا استدراكها، والهم الذي يحدث بسببه الخوف من المستقبل، فيكون العبد ابن يومه، يجمع جده واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن»ا. هـ[(٢)].

---

(١) ومن أراد الاستزادة في معرفة قيمة الوقت فعليه بقراءة ما كُتب في ذلك، ومن أفضل ما اطلعت عليه كتاب (الوقت في حياة المسلم) للشيخ القرضاوي، وكتاب (الوقت عمار أم دمار) للأستاذ جاسم المطوع، وكتاب (سوانح وتأملات في قيمة الوقت) الأستاذ/خلدون الأحدب.

(٢) الوسائل المفيدة للحياة السعيد ص(٢٠).

«إذا شربت ماءً عذباً زلالاً هذا اليوم، فلماذا تحزن من ماء أمس الملح الأجاج، أو تهتم لماء غدٍ الآسن الحار... فقل لنفسك لليوم فقط سأعيش فأغرس في قلبي الفضيلة، وأجتث منه شجرة الشر بغصونها الشائكة من كبر وعجب ورياء وحسد وحقد وغل وسوء ظن.

لليوم فقط سوف أعيش فأنفع الآخرين، وأسدي الجميل إلى الغير؛ أعود مريضاً ، أشيع جنازة، أدلُّ حيران، أطعم جائعاً، أفرج عن مكروب، أقف مع مظلومٍ، أشفع لضعيفٍ ، أواسي منكوباً، أكرم عالماً، أرحم صغيراً، أُجلُّ كبيراً...، يومك يومك أيها الإنسان أروع كلمة في قاموس السعادة لمن أراد الحياة في أبهى صورها وأجمل حللها»[1].

ولله در القائل:

ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها

وقال الآخر:

دع المقادير تجري في أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها ... يبدل الله من حالٍ إلى حال

---

(١) لا تحزن للدكتور عائض القرني ص (٣٧).

السابع عشر: ومما يبعد من الوقوع في الحزن عدم تدخل الشخص فيما لا يعنيه قولاً أو فعلاً، وبهذا يستريح ويسلم من التبعات والملامات، وتعلق الخلق به، قال ﷺ: **(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)**[1].

قال ابن رجب – رحمه الله – :«وليس المراد بأنه يترك ما لا عناية له به، ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس، بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حسن الإسلام، فإذا حَسُن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال، فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات، وإذا حسن الإسلام، اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات أو المشتبهات والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه، وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه، فإنْ لم يكن يراه فإن الله يراه، فمن عبدالله عن استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه، واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لايعنيه في الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه، فإنه يتولد من هذين

---

(١) أخرجه الترمذي رقم الحديث (٢٣١٩)، وابن ماجة رقم الحديث (٣٩٧٦)، ومالك في الموطأ (٩٠٣/٢)، وحسنه النووي في الأربعين، وقال الأرناؤوط: والحديث حسن بل صحيح. جامع الأصول (١٣٤/١٠).

المقامين الاستحياء من الله، وترك كل ما يُستحيى منه)[١].

الثامن عشر: ومما يبعد عن الوقوع في مواطن الحزن الترويحُ عن النفس، وهو طلب الراحة للجسد والفؤاد عند السآمة والملل وتزاحم الأعمال، وبلبلة الفكر، فمن المفيد حينئذ إعطاء النفس حظها المعتدل من المتعة المباحة، لأن الترويح عن النفس مدعاة لاستزادتها من الخير، حيث إن طبيعة الإنسان الجاد ذي الأهداف الخيِّرة أنه متى ما استراح إلى شيء من اللهو المباح فإنه يشعر أثناءه بعظم التبعة الملقاة عليه، وصعوبة تحقيقها إن لم يهرع إلى ما كان عليه قبل لهوه، ويحث مطاياه على السير في ركاب الخير[٢] قال ابن الجوزي – رحمه الله – في معرض حديثه عن الترويح عن النفس: (.... لابد لها من التلطف، فإن قاطع مرحلتين في مرحلة خليق بأن يقف، فينبغي أن يقطع الطريق بألطف ممكن، وإذا تعبت الرواحل نهض الحادي يغنيها... ومن أراد أن يرى التلطف بالنفس فلينظر في سرية الرسول ﷺ فإنه كان يتلطف بنفسه، ويمازح ويخالط نساءه، ويقبل ويمص اللسان، ويختار المستحسنات، ويُستعذب له الماء، ويختار الماء البارد، والأوفق من المطاعم، كلحم الظهر والذراع والحلوى، وهذا كله رفقاً بالناقة في طريق السير، أما من جرَّد عليها السوط فإنه

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٧٤).

(٢) التنازع والتوازن في حياة المسلم ص (١٢٩- ١٣٠) للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى.

يوشك ألا يقطع الطريق..)[1].

(وليس معنى هذا أن يسرف الناس في اللهو ويفرطوا في المزاح، ولكن المقصود ألا يعش الناس في جو مملوء بالكآبة ، مشحون بالمضايقات حتى تختفي فيه معالم الفرح والبهجة، بل ينبغي كلما أحس الناس بذلك أن يلجؤوا إلى اللهو المباح الذي لا يخل بالمروءة ولا يخدش الكرامة، ولا يخرج بصاحبه عن حياة الجد والعمل الدائب النافع)[2].

ولهذا أرشد الرسول ﷺ حنظلة بن الربيع – رضي الله عنه – لما اشتكى إليه اللهو في الضيعات والأولاد والزوجات ونسيانهم الكثير قال عليه الصلاة والسلام : (**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**) ثلاث مرات[3].

التاسع عشر: ومما يبعد من الوقوع في الحزن عدم الالتفات إلى الشائعات وأقاويل المرجفين، لما فيها من الضرر البيِّن، سواء على الفرد أو المجتمع، فكم زعزعت من ثقة، وفرَّقت من قلوب، وثَّبطت من عزائم، وحصل بسببها اتهام البريء، وتخويف الآمنين،

---

(١) صيد الخاطر (٣٢٦).

(٢) الترويح في المجتمع المسلم ص (٧) للأستاذ محمد السيد الوكيل.

(٣) جزء من حديث حنظلة أخرجه مسلم رقم الحديث (٢٧٥٠)، والترمذي رقم الحديث (٢٥١٦).

وحزن واكتئاب المسرورين، وتعطلت مصالح كثيرة، وغير ذلك من المفاسد العظيمة، كل هذا بسبب عدم التثبت في الأخبار، أو الإصغاء إلى إرجاف المنافقين.

والواجب على المسلم التثبت عندما ينقل إليه الخبر ويشك في صحته، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[1] كما يجب أن يُحسن الظن في إخوانه المؤمنين عندما تتعلق الإشاعة بهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٞ مُّبِينٞ ﴾[2].

كما يجب أيضاً الالتزام بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٞ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[3] قال الشيخ السعدي – رحمه الله – : «هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا

---

(١) سورة الحجرات : (٦).

(٢) سورة النور : (١٢) .

(٣) سورة النساء : (٨٣).

جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة، مما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، والخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه.

ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ أي يستخرجونه بفكرهم، وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان، أم لا، فيحجم عنه)[1] أ. هـ.

هذه جملة من الأسباب المعينة على تجنب الحزن، نسأل الله التوفيق والإعانة.

---

(١) تفسير السعدي (٢/١١٣- ١١٤).

الفصل الرابع

الأسباب المعينة على تحمل المكروه بعد وقوعه

من رحمة الله تعالى أن جعل لكل شيء أسباباً وأموراً تعين على تحصيله ومن الأسباب المعينة على تحمل المكروه بعد وقوعه ما يلي:

الأول: تذكير النفس بأن الحياة جُبلت على النكد والكدر

فهذا ديدنها وطبعها، فلا مفَّر من ذلك البتة. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [1] فالإنسان يكابد فيها حسبما قدِّر له حتى يلقى ربه فيجب توطين النفس على ذلك، فدوام الحال من المحال قال بعض السلف: «رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت، فهل ينتظُر الصحيح إلا السقم والكبير إلا الهرم والموجود سوى العدم»[2].

وقال آخر: «وواضح وضوح الشمس أن الإنسان في هذه الدار غرض للنوائب، ورمية للحوادث، فإذا سلمت نفسه أصيب في

---

(١) سورة البلد: (٤).

(٢) تسلية أهل المصائب ص (٣٣).

أعضائه، وإن عوفي في أعضائه امتحن بفقد أحبائه، وإن قُدرت له السلامة من ذلك فالهرم من ورائه »[١].

قال أبو فراس [٢]:

المـرء بـين مـصائب لا تنقـضي حتـى يـواري جـسمه في رمـسه
فمؤجـل يلقـى الـردى في أهلـه ومعجـل يلقـى الـردى في نفـسه

وقال آخر:

كـل مـن لاقيت يـشكو دهـره ليـت شـعري هـذه الـدنيا لمـن؟

وصدق من قال:

فجـائع الـدهر ألـوانٌ منوَّعـة وللزمـان مـسَرَّات وأحـزانُ
وهـذه الـدار لا تُبقـي علـى أحـد ولا يـدوم علـى حـال لهـا شـانُ

الثاني: ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه تذكير النفس بأن جميع من على الأرض من بني الإنسان وعلى اختلاف بلدانهم وطبقاتهم ينالهم من المكروه والحزن ما ينالهم، فعلى المحزون أن يسلي نفسه بأنه ليس الوحيد في الميدان. ولذا سلى الله – تعالى – نبيه وأصحابه يوم كبر مصابهم في معركة أحدٍ بقوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾[٣] وقال

---

(١) جنة الرضا (٥/٣).

(٢) أدب الدنيا والدين ص (٤٦٣).

(٣) سورة آل عمران (١٤٠).

تعالى ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ (١).

وتأمل كيف عزَّت الخنساء نفسها يوم قتل أخوها فعظم مصابها فقالت(٢) :

يذكرني طلوع الشمس صخراً	وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن	أعزي النفس عنه بالتأسي

قال بعض السلف: « من أنفع الأمور للمصاب: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل قرية ومدينة، بل في كل بيت من أُصيب» (٣).

الثالث: ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه تسلية النفس بأن ما أصابها إنما هو بقضاء الله وقدره،وأنه لا حيلة لدفعه البتة، فهو مقدر عليه قبل خروجه إلى الدنيا، وأن المصائب التي تحلُّ بالبشر إنما هي مكتوبة في كتاب عند الله قبل خلق السموات والأرض.. كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٤).

---

(١) سورة النساء (١٠٤).

(٢) ديوان الخنساء ص (٨٤).

(٣) تسلية أهل المصائب ص (٢٠).

(٤) سورة الحديد (٢٢).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)**[١] فعلى العبد الرضا والتسليم، وليعلم بأنه ملك لله، وأنه له راجع لا محالة فالملك لله- عز وجل - يتصرف في ملكه كيف شاء لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه.

الرابع: ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه أن يعلم المؤمن أنه مأجور على ما أصابه وأحزنه إذا صبر واحتسب، قال ﷺ: **(عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له)**[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: **(ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه)**[٣] وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : **(إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)**[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٤٤) رقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٥) رقم (٢٩٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المرض (٢/٧) ومسلم في كتاب البر (٤/١٩٩٠) وأحمد في المسند (٢/٣٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه (٤/٥١٩) رقم (٢٣٩٦) وابن ماجة (٢/١٣٣٨) وصححه الألباني =

الخامس: ومما يعين على تحمل المكروه اليقين بأن الله أراد بعبده خيراً، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: **(من يرد به خيراً يصب منه)**[(١)].

فلا يقضي الله قضاءً إلا لحكمة أرادها فهو الحكيم العليم، فهو عزَّ وجل منزَّه عن العبث، فلا قضاء إلا لحكمةٍ أرادها – عزَّ وجلَّ – والله أرحم بعباده من أنفسهم، فكم في طيات ما يُحزن وتكره النفس من الخير العميم، ونحن معشر البشر لا نعلم كما قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾** ﴾[(٢)]. قال سفيان الثوري – رحمه الله –: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة، والرضا مصيبة»[(٣)] وقال ابن القيم – رحمه الله –: «من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، لكن العبد لجهله وظلمه يتهم

=

في سنن الترمذي (٢/٢٨٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/٩٤).

(٢) سورة البقرة (٢١٦).

(٣) حلية الأولياء (٧/٥٥).

ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه...»[1].

قال أبو الصلت[2]:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طيّ الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرني ما كنت أحذره وربما ساءني ما بت أرجوه

وقال آخر:

وكم لله من لطفٍ خفي يدق خفاه عن فهم الذكي

السادس: ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه التدرع بالصبر، وهو حبس النفس عن التسخط والجزع، رضا بقضاء الله، ورجاء لثوابه وهذا واجب المسلم تجاه النوازل عليه من المصائب والأحزان، فلا تتحقق عبودية الضراء إلا بذلك قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[3].

قال ابن تيمية – رحمه الله – :«إن الإنسان إذا ابتلي فعليه أن

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٤).

(٢) جنة الرضاء (٣/ ٥٢).

(٣) سورة البقرة (١٥٥- ١٥٧).

يصبر ولا يكلّ حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات، ولابد في جميع ذلك من الصبر، ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين..» [١].

وقال ابن القيم – رحمه الله – :«وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» [٢].

والصبر يتحقق بثلاثة أمور:

١. حبس النفس عن الجزع والتسخط.

٢. حبس اللسان عن الشكوى للخلق.

٣. حبس الجوارح عن فعل ما ينافي الصبر [٣].

فالصبر أوسع عطاء يعطاه المؤمن، فادخل في حصنه الحصين، وأغلق عليك بابه، ولا تدع الجزع يسري إلى نفسك، فأنت بالصبر قوي على كل مصيبة.

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص (٥٣).

(٢) مدارج السالكين (١٥٢/٢).

(٣) عدة الصابرين (١٣) ومدارج السالكين (١٥٦/٢) وتحفة المريض (٤١).

ولعظم شأن الصبر ومنزلته ذُكر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً منها، ثناء الله على أهله وأنهم أهل الصدق والتقوى كما قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[1].

ومنها إيجاب محبة الله لهم قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

ومنها تحقيق معية الله لهم قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3] وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم.

ومن ذلك إيجابه - عز وجل - الجزاء لهم بغير حساب قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[4].

ومن ذلك إخباره - عز وجل - أنه ما يُلقّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، فقال تعالى: ﴿ وَيۡلَكُمۡ

---

(١) سورة البقرة (١٧٧).

(٢) سورة آل عمران (١٤٦).

(٣) سورة الأنفال (٤٦).

(٤) سورة الزمر (١٠).

ﱡﭐ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﱠ[1]

وقـــال تعـــالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾[2].

ومن ذلك إخباره سبحانه أن النجاة من النار ودخول الجنة إنما يُنال بالصبر فقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾[3].

وقال النبي ﷺ : **(ما أعطي أحد عطاءً خيرٌ وأوسعُ من الصبر)**[4].

وكتب عبيدالله بن عبدالله بن عتبة إلى عمر بن عبدالعزيز بقصيدة ومنها:

واصبر على القدر المحتوم وارض به	وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرئ عيشٌ يسر به	إلا سيتبع يوماً صفوه كدرُ

---

(١) سورة القصص (٨٠).

(٢) سورة فصلت (٣٥).

(٣) سورة الرعد (٢٣- ٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣/٣٣٥) رقم (١٤٦٩) ومسلم (٢/٧٢٩) رقم (١٠٥٣).

السابع : ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه النظر في حال من هـو أشـد منـه مكروهـاً ومصيبة، فالإنسان مهما ابتلي واشتدت كربته إلا أنه سيجد أشدَّ مصاباً منه – لو بحث – ولذا قال النبي ﷺ : (**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر إن لا تزدروا نعمة الله عليكم**)[1].

الثامن: الالتجاء إلى الله في كشف النازلة، والتضـرع إليـه – عز وجل– أن يجعل عاقبتها خيراً، فالمؤمن يقول كما قال نبي الله يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] والحذر الحذر أن يُنزل المبتلى حاجته بأحد من المخلوقين ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾[3] فالله وحده القادر على رفع البلوى، وهو القادر - عزَّ وجل – أن ينزل الطمأنينة والسكينة على قلب المصاب، وهو القادر على خلق أسباب زوالها، وهو القادر على خلق ما في طيات المكروه من خير وحسن عاقبة، فالأمر لله من قبل ومن بعد، فعلى المؤمن أن يقوي يقينه وثقته بالله،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٥/٤) رقم (٢٩٦٣).

(٢) سورة يوسف (٨٦).

(٣) سورة الأنعام (١٧)، وسورة يونس (١٠٧).

قال الله – عز وجل – في شأن المصابين الصابرين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [١] أما المخلوق فإنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف لغيره، وصدق القائل:

من استعان بغير الله في طلب — فإن ناصره عجز وخذلان

وقال آخر":

إذا ناب خطب أو عرا حادث — فَنَمْ قريراً غير محزونِ
وناد مولاك الذي أمره — يكون بين الكاف والنون
هل غير رب العرش سبحانه — أخرج ذا النون من النون؟

فعلى العبد أن يُنزل حاجته وضره بالله وحده، وقد جاء في السنة المطهرة الإرشاد إلى أدعية خاصة بالكرب والهم والحزن ويجدر بمن أصيب بالمكروه والحزن أن يدعو بها ومن ذلك:

أ- ما رواه ابن عباس – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: **(لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، رب العرش الكريم)** [٢] وفي رواية مسلم: **(كان إذا أحزنه أمر قال ذلك).**

---

(١) سورة البقرة (١٥٥– ١٥٦).

(٢) رواه البخاري (١١/١٤٥)رقم الحديث (٦٣٤٥ – ٦٣٤٦)، ومسلم (٤/٢٠٩٢) رقم الحديث (٢٧٣٠).

قـال الإمـام النـووي – رحمـه الله – «وهـو حـديث جليـل ينبغـي الاعتنـاء بـه، والإكثار منه عند الكـروب والأمـور العظيمـة، وقـال الطبري كان السلف يدعون به، ويسمونه دعاء الكرب»[١].

ب– ما رواه أنس – رضي الله عنه – قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ فكنت أسمعه كثيراً يقول: (**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل والبخل والجبن، وضَلَع الدَّين وغلبة الرجال**)[٢].

ج– مـا رواه عبـدالله بـن مـسعود – رضـي الله عنـه – قـال: قـال رسول الله ﷺ: (**ما أصاب أحداً همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب الله همَّه وحزنه، وأبدل مكانه فرجاً**)، وفي رواية (**فرحاً**)، قال فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها فقال: (**بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**)[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٧/٥٠- ٥١).

(٢) رواه البخاري (٦/٨٦) رقم (٩٣٢٨)، ومسلم (٤/٢٠٩٧) رقم الحديث(٢٧٠٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/٣٩١- ٤٥٢) وحسنه ابن حجر كما في الفتوحات =

د – ما رواه أنس – رضي الله عنه – قال: (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ قال: (**يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث**) [١].

التاسع : ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه العلم اليقيني بأن الكرب والمكروه لن يستمر،لأن وعد الله صادقٌ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [٢].

قال الحسن كانوا يقولون :«لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين» [٣].

فيجب على المسلم أن يحسن الظن بربه ، ويعلم أن حسن الظن بالله تعالى عبادة وقربة إلى الله يثاب عليها ، قال الرسول ﷺ : (**إن حسن الظن من حسن العبادة**) [٤].

=

الربانية (١٣/٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٩٧).

(١) رواه الترمذي (٥٠٤/٥) رقم (٣٥٢٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٦٥٣) ومن أراد الاطلاع على جملة من أدعية الكرب والهم فليطالع الكتاب القيم (تحفة المريض) للشيخ الدكتور عبدالله الجعيثن فقد ذكر هذه الأحاديث وغيرها ص (٩٠- ٩١).

(٢) سورة الشرح (٥- ٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٥٢٥/٤) ومعنى هذا : العسر معرف في الحالتين وهو مفرد ، واليسر متعدد فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٩٧/٢) والترمذي (٢٣٢/٥) رقم الحديث (٣٦٠٤) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند إسناده صحيح رقم (٣) .

العاشر: الفزع إلى الصلاة عند حلول المصيبة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] قال ابن كثير – رحمه الله – «وأما قوله ﴿ وَالصَّلَاةِ ﴾ فلأن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر»[2] .

فما أنفع الصلاة للمرء عندما تداهمه الأحزان وتأخذ بتلابيبه، فإنه يجد فيها الراحة والطمأنينة، حيث تملأ جوانحه بالرِّضا، وهدوء الأعصاب فيجد الأنس بالمولى – عزَّ وجل – حيث يناجيه، ويعلن إفلاسه وعجزه عن مقاومة ما حلَّ به، فيطلب من ربه – القادر على تغيير الأحوال– تفريج الكروب، وتنفيس الهموم ، وإزالة الأحزان، وحسن العاقبة.

فيجد المصلي من اللَّذَّة والراحة والسكينة والفتح من الله ما لم يكن بالحسبان، فهي من أكبر العون على إزالة الكروب.

ولذا قام ﷺ ليلة بدر يصلي طول ليله ويناشد ربه[3].

عن حذيفة – رضي الله عنه – قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه

---

(١) سورة البقرة : (١٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨٧/١).

(٣) قيام النبي ﷺ ليلة بدر ثابت من حديث علي رضي الله عنه رواه الإمام أحمد في المسند (٢٥/١ ، ١٣٨) ، والنسائي رقم (٨٢٣).

أمرٌ صلى»[١].

الحادي عشر: ومما يعين على تحمل المكروه إدراك حقيقة الدنيا، فالله الذي خلقها بيَّن لنا حقيقتها أيَّما بيان، وذلك بالنص وضرب الأمثال، ولهذا حذَّر عباده من الاغترار بها فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة رقم الحديث (٤٧٠٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) سورة فاطر : (٥).

(٣) سورة آل عمران : (١٨٥).

(٤) سورة الحديد : (٢٠).

(٥) سورة الكهف : (٤٥).

﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [(١)] . «أي : أفلا يكون لكم عقول بها تَزِنُون أي الأمور أولى بالإيثار؟ وأي الدارين أحق للعمل لها؟ فدلَّ ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الآخرة على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص عقله...» [(٢)].

قال ﷺ : (**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع**) [(٣)] وجماع القول: فالدنيا متاع رخيص زائل، غرَّارة سحَّارة مهما أقبلت فهي مدبرة، ومهما أعطت فهي مقفرة، ومهما جمعت فهي مفرقة، فهي دار المصائب والأكدار، والكدح والتعرض للأمراض والأخطار، فجائعها لا تحصى، لذا فالسعيد من أخذ منها بلغةً إلى الآخرة ولم تأخذ منه، والتعيس من أخذت بلبه وكانت أكبر همه.

قالت هند بنت النعمان بن المنذر:«لقد رأيتنا ونحن أعزَّ الناس وأشدهم ملكاً ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن من أقل الناس، وإنه حق على الله أن لا يملأ داراً حَبرة إلا ملأها عَبرة»[(٤)].

---

(١) سورة القصص : (٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن . للعلامة عبدالرحمن السعدي. تفسير الآية (٦٠) من سورة القصص.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٨٥٨).

(٤) الآداب الشريعة لابن مفلح (١٧٨/٢).

قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : «من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات»[١].

وقال الحسن البصري – رحمه الله – :«والذي نفسي بيده لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه»[٢].

وليس المقصود هو ذم الدنيا لذِاتها، وإنما المقصود هو ذم التعلق بها، وكونها تستحوذ على تفكير المرء وعقله ومشاعره واهتماماته وعواطفه، فالحب لها، والبغض من أجلها، والانهماك في تحصيلها، فبهذا المسلك يهلك المرء من حيث لا يشعر، وذلك بما يحصل له من غفلة عظيمة عمّا خُلق من أجله، وتقصير بالواجبات والحقوق.

والواجب على المسلم أن يُجمل في الطلب، ويسعى في طلب الرزق لكن على أساس أن المال وسيلة لا غاية، وسيلةٌ للاستغناء عن الخلق والقيام بالحقوق والواجبات والتقرب إلى الله بنفع عباده سواء المحتاجين أو المصالح العامة، فهو يأخذ المال من حله ويضعه في محله، ويأخذ من الدنيا ما يكون عوناً له على استقامة دينه.

قال سعيد بن المسيب – رحمه الله – : «لا خير فيمن لا يريد

---

(١) تسلية أهل المصائب للمنبجي ص (٢٣٨- ٣٢٩).

(٢) المرجع السابق ص(٣٢٩).

جمع المال من حله، يكفُّ به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه»[١].

وقال بعض السلف: «اجعل المال كالنعال تتقي به الشوك وحر الرمضاء ولا تكن نعلاً للمال».

فيا سعادة من رزقه الله يقيناً وبصيرة بحقيقة الدنيا، فلم يغترَّ بها، فلا يحزن ولا يأسف على ما فاته من حظوظها. والله المستعان.

الثاني عشر: ومما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه تذكر الموت وسرعة الانتقال إلى الآخرة، قال ﷺ: **(أكثروا من ذكر هاذم اللذات، فما ذكره عبد قطّ وهو في ضيق إلا وسَّعه عليه، ولا ذكره وهو في سعة إلا ضيَّقها عليه)**[٢].

«والمراد أن العبد إذا ذكر الموت وهو في حالة ضيق من مرض أو غيره هان عليه ذلك وتوسَّع عليه ما هو فيه من الضيق، لعلمه بسرعة الارتحال عنه وموافاته لثوابه وأجره، وإذا ذكره وهو في حالة سعة ضاقت عليه لعلمه بالانتقال عنها وسرعة زوالها، وهذا خير له من أن

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (١٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. رقم الحديث (٢٣٠٨)، وابن ماجة رقم الحديث (٤٢٥٨)، وصححه ابن حبان رقم الحديث (٢٥٥٩)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" إسناده حسن (١٠/٣٠٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (١٢١١). وقوله (هاذم اللذات) بالذال، أي قاطع اللذات. ينظر لسان العرب (١٢/٦٠٦).

ينهمك في الملذَّات وينسى الموت وما وراءه»[١].

قال عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله –:« إذا كنت من الدنيا فيما يسوؤك فاذكر الموت، فإنه يسهل عليك»[٢].

وقال الحسن البصري – رحمه الله – :«فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فيها فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها»[٣].

والثالث عشر: مما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه بأن الجزع والحزن على ما أصابه لا يفيد بل يزيد في الحسرة والألم، فقدر الله ماض لا محالة، فالحزن والأسى يكبِّر المصائب على النفس، ويضاعف الحسرة، وبالصبر والاحتساب يصغر ويضمحل، قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه - :«إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور»[٤].

---

(١) تحفة المريض للشيخ عبدالله الجعيثن ص (٥٦).

(٢) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص (٤٢).

(٣) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي (٣٨٣).

(٤) منهج العابدين للغزالي ص (٢٣٩).

الرابع عشر: محاولة تفريغ ما في النفس من شجون وهموم، كلٌّ وطريقته، فمن الناس من يجد في البكاء وسيلة للتنفيس والتفريغ، ومن الناس من يجد ذلك في الشعر بتصوير أحزانه وما يجد عبر القوافي، ومن الناس من يرى الكتابة السبيل المناسب له، ومن الناس من يرى السبيل لتلاشي الأحزان الشكوى إلى أعزِّ صديق ، فيفضي له ما في نفسه وما حلّ به.

والحاصل : قد علم كل أناس مشربهم، فكل وسيلة مشروعة للتنفيس واضمحلال الحزن حميدة، فالرسول ﷺ لما مات ابنه إبراهيم حَزن وبكى وقال : (**إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**)[1].

فشرط تفريغ الحزن سواء بقرض الشعر أو الشكاية أو البكاء ألا يقول إلا ما يرضي الرب – عز وجل – .

وهنا لفتة: يجدر بمن أتاه مشحوناً بالأحزان، يريد أن يبثها بين يديه أن يتيح له المجال، ولا يقاطعه الحديث، بل يحسن به الاستماع إليه، وإحساسه بالمشاركة، ويأخذ عن خاطره، لأن النفوس البشرية جُبلت على حُب من يُشاطرها أحزانها، ولهذا شرعت التعزية عند حلول المصيبة في ديننا ولله الحمد والمنَّة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩/٣) مسلم رقم الحديث (٢٣١٥).

قال الشاعر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءةٍ يُنسيك أو يُسليك أو يتوجع

الخامس عشر: ومن الأسباب المجربة لإزالة الحزن عن المصاب- خاصة إذا طال أمده - **السفر والترويح عن النفس** ، لأن بتغير المكان والظروف التي حصل بها الحزن تهدأ النفس، ويتسلى المحزون عن استذكار الماضي، وذلك عندما يشتغل بلوازم السفر، والانتقال من مكان إلى آخر والاطلاع على المعالم والحدائق، والأماكن العالية، والجلوس عند شاطئ البحر، والتعرض لنسمات الهواء العليل، خاصة السفر إلى الأماكن البعيدة عن الضوضاء وازدحام الناس، أو ما فيه روحانية وتعلق بالعبادة واشتغال بها، كالسفر إلى مكة لأداء مناسك العمرة أو الحج أو زيارة المسجد النبوي. ولعل مما يمكن الاستشهاد به هنا أمره ﷺ لمن غضب أن يُغير حاله، فإن كان قائماً جلس ، وإن كان جالساً اضطجع. عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : **(إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع)**[1].

السادس عشر: من الأسباب المخففة للحزن، العلاج بالطعام، وبيانه ما أخرجه البخاري ومسلم - عليهما رحمة الله - عن عائشة

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٢/٥)، وأبو داود رقم الحديث (٤٧٨٢) وصححه ابن حبان رقم الحديث (٥٦٨٨) وقال ابن مفلح المقدسي إسناده صحيح. الآداب الشرعية (٢٦٠/٢).

– رضـي الله عنهـا – أنهـا كانـت إذا مـات الميـت مـن أهلـها فـاجتمع لذلك النسـاء ثـم تفـرقن إلا أهلـها وخاصـتها ، أمـرت برمـة مـن تلبينـةٍ فطبخت ثم صنع ثريدٌ فصُبَّت التلبينـة عليها ، ثـم قالـت: كلـن منهـا فـإني سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: (**التَّلْبينـة مُجمَّةٌ لفـؤاد المـريض، وتَذْهبُ ببعض الحُزْن**)[1].

«مَجَمَّةٌ : بفـتح الجيـم والميم، ويقـال بـضم الميم وكـسر الجيـم معنـاه: مـريح لـه، مـن الإجمـام وهـي الـراحة، والتلبينـة والتلبـين بفـتح التاء: حساء رقيق من دقيق ونخالـة، وربمـا جعـل فيهـا عـسل، سُـمّيت بـذلك تـشبيهاً بـاللبن لبياضـها ورقتهـا.. ،هـي أنفـع مـن مـاء الـشعير لطبخهـا مطحونـةً فتخـرج خاصـية الـشعير بـالطحن.. وقولـه :«تـذهب ببعض الحزن قد يكـون لخاصيةٍ فيهـا، وقـد يكـون لـزوال مـا حـصل بالحزن من اليبس وبرد المزاج باستعمال ذلك، فقويت القـوى، وقـوي الحار الغريزي، والله أعلم»[2].

قال ابن حجر – رحمه الله – :«ولعل الـلائق بالمريض ماء الشعير إذا طبخ صحيحاً، وبالحزين ماؤه إذا طبخ مطحوناً، والله أعلم»[3].

---

(١) أخرجه البخـاري في كتـاب الأطعمـة رقـم الحـديث (٥١٠١)، ومـسلم في بـاب : التلبينـة مجمة لفؤاد المريض رقم الحديث (٢٢١٦).

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي (٣/٣٤٩).

(٣) فتح الباري (١٠/١٥٣).

السابع عشر: مما يعين على تحمل المكروه بعد وقوعه التسلي بقراءة بعض قصص الذين وقع عليهم المكروه فحزنوا وتألموا، فما لبث أن انكشف الحزن، فأصبح في طيات المكروه خيرٌ كثير، وسأورد في الفصل السادس بعض القصص الواقعة لعدد من الناس أصابهم حظ من المكروه فانجلى عن حسن عاقبة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1].

---

(١) سورة النساء: (١٩).

الفصل الخامس

فوائد وثمرات المكروه

من رحمة الله أن الحزن أو المكروه الذي يعتري الإنسان لايدوم، بل ينقشع مُخلِّفاً آثاراً إيجابية وفوائد للمحزون، تتفاوت بحسب توفيق الله له من جانب، ويقظة المحزون من جانب آخر في استثمار الحدث، واحتساب الأجر عند الله، والنظر الإيجابي إلى الابتلاء، والله الموفق والمستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

ومن الجدير بالتنبيه أن الحزن وإن كان له فوائد وعواقب حميدة – في الغالب- إلا أنه ليس مراداً لذاته في الإسلام لما يحصل بسببه من تكدر مزاج الإنسان وقلقه، وحدوث آثار سلبية قد تكون غالبة على الفوائد، لذا فالمسلم يتلقى المكاره والمضار بالمقاومة لما يمكنه مقاومته، وتخفيف ما يمكن تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس له عنه بدٌّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: «لا منافاة بين كون الشيء مصيبة باعتبار، ونعمة باعتبار، فباعتبار ما يحصل به من الأذى هو مصيبة، وباعتبار ما يحصل به من رحمة هو نعمة،

وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه، فهو مصيبة باعتبار مرارته، ونعمة باعتبار إزالته للمرض الذي هو أشد ضرراً منه، وأدنى الشرين إذا زال كان أعظمهما نعمة»[1].

وقال في موضع آخر:«وما يصيب الإنسان إن كان يسرُّه فهو نعمة بيِّنة، وإن كان يسوءه فهو نعمة من وجهة أنه يكفر خطاياه، ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقد قال ﷺ في الحديث : (**والله لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له**)[3].

وفي هذا المبحث سأورد جملة من الفوائد والثمرات للمحزونين عند حلول المكروه، نسأل الله العافية وحسن العاقبة.

أولاً : استخراج عبودية الضّراء : «فإن الله – تعالى –إنما

---

(١) تسلية أهل المصائب ص (٢٢٧).

(٢) سورة البقرة (٢١٦).

(٣) الحسنة والسيئة. لابن تيمية ص (٨٢) والحديث يأتي تخريجه وهو حديث صهيب بلفظ (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير...) .

خلق خلقه للابتلاء والامتحان، فيستخرج منهم عبودية السراء، وهي الشكر، وعبودية الضّراء وهي الصبر، وهذا لا يتم إلا بأن يقلب الله الأحوال على العبد حتى يتبيَّن صدق عبوديته لله تعالى وإذا كان المرء مؤمناً حقاً فإن كل أمره خير، إن كان في سراء شكر فكان خيراً له، وإن كان في ضراء صبر فكان خيراً له، كما قال ﷺ: **(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**[1])[2] .

ثانياً: تكفير الخطايا والذنوب: ومنْ منا لا يجني على نفسه، فكل ابن آدم خطاء، لكن من رحمة الله أنه جعل هذه المصائب والأحزان التي تحل بالعبد مكفرات للذنوب، فعن أبي هريرة وأبي سعيد -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: **(ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)**[3] رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري ، ولفظ مسلم : **(ما يصيب المؤمن من وصب ولا**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٩٥/٤) رقم الحديث (٢٩٩٩).

(٢) تحفة المريض للشيخ عبدالله الجعيثن ص (٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٣/١٠) ، رقم الحديث (٥٦٤١)، ومسلم (١٩٩٢/٤) رقم الحديث (٥٥٧٣).

نصب ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يُهمُّه إلا كفر الله به سيئاته)[(١)].

ومما يتبع ذلك الثواب الحاصل للمحزون إذا كان حزنه لله، كالحزن على مصائب المسلمين أو على ذنب ارتكبه أو تفريط حصل منه ونحو ذلك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -:«وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محموداً من تلك الجهة، لا من جهة الحزن كالحزن على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عموماً، وهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر»[(٢)].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)**[(٣)].

ثالثاً: أن حلول الأحزان وما تكرهه النفس سبب لدخول الجنة إذا صبر العبد واحتسب، فالجنة لا تنال إلا بالمكاره قال – عز وجل – : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) المراد بالنَّصب: التعب، والوصب: المرض. النهاية في غريب الحديث (٥/٦٢).

(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص (٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٤٧١) رقم الحديث (٣٠٩٢) وقال الألباني هذا سند جيد. السلسلة الصحيحة رقم الحديث (٧١٤).

﴿ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[(١)].

قال ابن كثير – رحمه الله – :«يقول تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب... ﴿ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ خوّفوا من الأعداء زلزالاً شديداً وامتحنوا امتحاناً عظيماً...»[(٢)] ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **(حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات)**[(٣)].

قال ابن حجر – رحمه الله – :«وهذا يتناول مجاهدة النفس في القيام بالطاعات، واجتناب المعاصي، والصبر على المصائب والتسليم لأمر الله فيها»[(٤)]، ولهذا جاء الوعد بالجزاء من الله فيمن فقد بصره، كما في حديث أنس – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : **(يقول الله – عز وجل– إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته**

---

(١) سورة البقرة : (٢١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٥١/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠/١١) رقم الحديث (٦٤٨٧)، ومسلم (٢١٧٤/٤) رقم الحديث (٢٨٢٢) واللفظ له.

(٤) فتح البخاري (٣٢٠/١١).

منهما الجنة) [١] يريد عينيه.

كما جاء الوعد فيمن أصيب بموت حبيب له من ولد أو أخ أو غيرهما بقوله – عليه الصلاة والسلام – : يقول الله تعالى: (**ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة**) [٢] والمراد باحتسبه: صبر على فقده، راجياً الأجر من الله على ذلك.

فعلى المسلم أن يصبر عند حلول المحن والمصائب لينال أجرها بإذن الله، وليحذر من التسخط والجزع على المصيبة، قال بعض السلف: «فَقْدُ الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة» [٣].

رابعاً: ومن ثمرات الحزن والمكروه انكشاف الدنيا على حقيقتها للمرء: فيعلم بالتجربة العملية أن الدنيا حقيرة فانية، ومتاعها قليل، ولا تصفو لأحد، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن أسَّرت يوماً أحزنت أياماً، وإن أعطت يسيراً منعت كثيراً، فهي دار نصب وأذى وعناء، فلا تحصل الراحة التامة للمؤمن إلا بفراقها، كما روى أبو قتادة بن ربعي الأنصاري – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: (**مستريح ومستراح منه**) قالوا يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٦/١٠) رقم الحديث (٥٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١/١١) رقم الحديث (٦٤٢٤).

(٣) تسلية أهل المصائب ص (٢٣٣).

الله ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: (**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**)(١).

فالتجربة العملية خير زاجرٍ للمؤمن من الاغترار بالدنيا الزائلة المشحونة بالهموم والأكدار والأحزان، لذا يتخفف المصاب منها ولا يركن إليها، ويعلم علم يقين أنه لا قرار فيها، فيحدوه ذلك للتطلع لدار لا كدر فيها ولا حزن، دار قال عنها رسول الله ﷺ : (**إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً**)(٢) وذلك بعمل الصالحات تمهيداً للطريق الموصل إليها، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾(٣).

خامساً: ومن ثمرات المصائب ومحن الدنيا أنها من أعظم الأدوية لعلاج مرض الكبر والعجب وقسوة القلب لدى الإنسان:

وهذه الأمراض مهلكة عاجلاً وآجلاً :«فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب لتكون حمية له من

---

(١) أخرجه البخاري رقم الحديث (٦٥١٢).

(٢) أخرجه مسلم رقم الحديث (٢٨٣٧).

(٣) سورة الروم: (٤٤).

هذه الأدواء... فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وتجبروا في الأرض وعاثوا فيها بالفساد، فمن شيم النفوس إذا حصل لها أمرٌ ونهي وصحة وفراغ وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها تمردت وسعت في الأرض فساداً... لكن الله - سبحانه وتعالى - إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواءً، والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدواء المهلكة، حتى إذا هذَّبه ونقّاه وصفَّاه، أهّله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته)[1].

ومن جهة أخرى كيف يطغى المرء في هذه الحياة، وزوال ما أطغاه متيقن لا محالة، بل وحلول ضده قد يحل فجأة، فدوام الحال من المحال، وتصريف الأحوال بيد منشئها - عز وجل - ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]. فكم من غني أمسى فقيراً، وكم من ملك أصبح مملوكاً، وكم من صحيح أضحى سقيماً، وكم من شريفٍ بات وضيعاً، فسبحان مقلب الأحوال...

سادساً: أن الشدائد وحصول المكروه خاصة النوازل العامة تكشف الناس على حقيقتهم، فتظهر معادن النفوس، وطبائع القلوب، ويتضح جلياً درجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهلع فيها

(١) تسلية أهل المصاب ص (٣٤).

(٢) سورة يس (٨٣).

والصبر، ودرجة الثقة بالله أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدرة الله أو التبرم والجزع، وعندئذ يتميز الصف وينكشف عن مؤمن ومنافق، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم.

بل إن الفرد من الناس يلتبس عليه أمر نفسه فلا يتجلى كمال التجلي إلا بالتجارب الكثيرة، والامتحان بالشدائد العظيمة، فالأزمات والشدائد تمحص الفرد وتنقيه كما يُنقى الذهب التبر بالنار، فيزول بذلك زيفه وتظهر نضارته.

سابعاً: ومن فوائد حلول المصائب على المسلم أنها فرصة لمحاسبة النفس وتفقدها، والسعي الحثيث للتعرف على مواطن الخلل، فما أُتي الإنسان إلا من قبل نفسه قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[1].

وتأمل كيف أجاب الله الصحابة حين تساءلوا عن سبب الهزيمة التي حلَّت بهم يوم أحد، وهم مسلمون وقائدهم سيد البشر ﷺ، وعدوهم المشركون المشاقون لله وللرسول، أجاب الله على ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى: (٣٠).

(٢) سورة آل عمران (١٦٥).

وسبحان الله كم من إنسان أصابته مصيبة، بل – أحياناً- قد تتوالى عليه المصائب وهو أعمى عن سببها وقد تكون بسبب ظُلمه لنفسه، أو ظلمه لعباد الله أو حتى البهائم ، وهو عن هذا غافل.

أما المسلم فهو كيّس فطن، يقف أمام نفسه محاسباً لها على التفريط ويعلم أن ما أصابه سواء في نفسه أو أهله أو ماله، إنما هو بسبب ذنب اقترفه لذا تجده يسعى جاهداً للتعرف على مكمن الداء، وتشخيص المرض لأن العلاج يبدأ من معرفة الداء، فكم من توبة نتجت عن مصيبة، وكم من إنسان تعدّل مسار حياته بعد الفجائع، وكم من شكر حصل بعد النقم.

فالمصائب والمكاره التي تعتري الإنسان بمثابة النذر والتنبيهات التي تفاجئ السائق أثناء سيره فيضطر إلى تخفيف السرعة، والتنبه لما أمامه من مخاطر أو قرب انتهاء الطريق، فيحصل بالابتلاء تنبيه الغافل وتذكير الناسي إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها، واللجوء إلى الله، والافتقار إليه.

ومن الكياسة والشجاعة أن يتغلب المسلم على هوى نفسه ويلجمها بلجام التقوى عندما يتبين له الخلل فيتخلص من المظالم والإسراف على النفس، هذا هو حال المؤمن، أما المنافق – والعياذ بالله – تأتي عليه النذر والمصائب فلا يتوب ولا يتذكر، بل من عقوبة الله له لا يدري من أين أُتي وهذا من مرض القلب، بل ونهاية المرض ألا يُحس المريض بالألم، فهو في حالة غيبوبة- نسأل الله

العافيـة والسـلامة -ولـذا قـال الله عـن المنـافقين ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1].

ثامناً : عند حصول المكروه والمحزون يتحقق - لمن وُفق- صدق الالتجاء إلى الله فينطرح بين يدي ربه، يتضرع إليه، ويتوسل بـه، منكسراً قلبـه، وذلـك أن المـرء إذا نفـدت جميـع الأسـباب، وانعـدمت الحيـل، عَلِم عِلْم الـيقين أنـه لا ملجـأ مـن الله إلا إليـه، فاستسلم لربه، وأذعن وأعلن إفلاسه وتجرده من كل أحد إلا من ربه، وهذا الانكسار وإعلان العجز والالتجاء إلى الله وحده عبادة عظيمة، يتحقق له - بتوفيق الله - كمال الرجاء وكمال التوكل، وما اجتمعا في عبد إلا أحدثا له عبادة يجد لذتها في التضرع والدعاء خاصـة في السـجود، والسـاعات الـتي يرجـى فيهـا إجابـة الـدعاء، فيمنحـه الله الطمأنينـة، وقـوة العزيمـة، وفتحـاً لأبـواب السـعادة في الدنيا والآخرة.

قـال الإمـام ابـن القـيم - رحمـه الله - :«وأقـرب بـاب دخـل منـه العبد على الله تعالى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمنُّ بها، بل يدخل على الله تعالى من

---

(١) سورة التوبة : (١٢٦).

بـاب الافتقـار الـصِّرف والإفـلاس المحـض، دخـول مـن كـسر الفقـر والمسكنة قلبه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه وكمال فاقته وفقره إليه»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «مصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله»[٢].

وقال سفيان بن عيينة – رحمه الله – :«ما يكره العبد خير له مما يحب، لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء وما يحبه يلهيه»[٣].

فالمؤمن يقبل على ربه، ويتضرع إليه في رفع ما حلَّ به، لعلمه علم اليقين أن أَزِمَّة الأمور بيد الله – سبحانه – فهو النافع الضار، فلا يلتفت إلى غيره.

أما الكافر – والعياذ بالله – فتحلُّ به المصائب فلا يستكين لربه ولا يتضرع، بل يتمادى في غيِّه ولجته قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[٤].

---

(١) الوابل الصيب ص (٨).

(٢) تسلية أهل المصائب ص (٢٢٦).

(٣) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص (٢٢).

(٤) سورة المؤمنون : (٧٦).

تاسعاً: ومن ثمرات المصائب والابتلاء حصول المرء على التجارب المفيدة، نتيجة تنوع ما يطرأ عليه من تغير الأحوال، فهذا يمنحه القدرة على الاستعداد النفسي لفجائع الدهر، وحسن التصرف في المفاجآت والتعايش مع الظروف الصعبة التي تحل به، ومن وُفق لذلك تكسبه المصائبُ المراس على التأني، وسلوك مسلك الرفق في اتخاذ القرار المناسب للنازلة، وردة الفعل المدروسة المعتدلة، فيخرج المرء من المأزق بمكاسب لم تكن في الحسبان، وذلك نتيجة التأني وعدم العجلة، قال ﷺ: (**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**)[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٥٩٤).

الفصل السادس

نماذج وقصص لمحزونين وكارهين وعاقبة أمرهم

إن كل إنسان عندما يتأمل تجاربه في الحياة يدرك أنه مرَّت به مكروهات كثيرة، كان في طياتها الخير العميم، فكم من محنةٍ تجرعها الإنسان وكادت تتقطع أنياط قلبه حسرةً لفظاعتها، ثم انقشعت بعد حينٍ وقد أنشأت له في حياته من المنح والخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل، فسبحان الحكيم العليم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وسأذكر في هذا الفصل قصصاً واقعية لأناس أصابهم من الحزن ما أصابهم، فانجلى الحزن والمكروه عن حسن عاقبة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وكم في القصص من عبر ودروس لمن وفقه الله، فهي نماذج لتجارب الحياة يستفيد منها اليقظ اللبيب المواعظ والدروس العميقة، بحيث تكون نبراساً له في حياته، وما سأذكره ينقسم إلى قسمين:

---

(١) سورة البقرة: (٢١٦).

القسم الأول: قصص روتها لنا كتب السنة المطهرة، وكتب السير والتراجم.

القسم الثاني: قصص رويتها عن الثقات الذين عاصرتهم، بمضمونها، فليس مني سوى صياغة الأسلوب.

واللّه الموفق والهادي للرشاد.

القصة الأولى

حزن إبراهيم الخليل - عليه السلام - لما أخذ الجبار زوجته

كان إبراهيم الخليل – عليه السلام – في قومه ، وتزوَّج امرأته (سارة) ثم سافر هو وإياها إلى بلد آخر، وفي أثناء الطريق اضطرا إلى دخول قرية، وإذ بها ملك جبَّار، يغتصب كل امرأة جميلة بعدما يقتل زوجها، وكانت (سارة) امرأة جميلة، فلما دخلا القرية، أُخبر الملك أن رجلاً قدم ومعه امرأة من أحسن النساء، وقد علم إبراهيم الخليل – عليه السلام – بديدن هذا الملك، فأرسل إليه الملك فسأله عنها، فقال: منْ هذه ؟ قال : أختي، ثم رجع إبراهيم إلى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإنَّ هذا الجبَّار سألني عنك فأخبرته أنك أختي وإنك أختي في الإسلام، فلا تكذِّبيني ، ثم أرسل إليها الملك فأخذها فحزن إبراهيم – عليه السلام – حزناً شديداً، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذته خنقة حتى ضرب برجله الأرض كأنه مصروع، فقال: ادْعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ، ثمَّ تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشدَّ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرُّكِ، فدعت فأُطْلقِ، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسانٍ ، بل أتيتموني بشيطانٍ، فتركها

وأخدمها (هاجر)[١].

ثم رجعت إلى إبراهيم – عليه السلام – وإذا هو قائم يُصلِّي، فأومأ بيده: مهيا[٢]، قالت: رَدَّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره.

ثم أهدت (سارة) مخدومتها (هاجر) إلى إبراهيم – عليه السلام– فكانت ملك يمين له، فوطأها إبراهيم، فولدت إسماعيل – عليه السلام– فكانت (هاجر) عليها السلام – أُمًّا للعرب. ولذا قال أبو هريرة – رضي الله عنه – وهو الراوي لقصة إبراهيم وسارة قال: تلك أُمُّكم يا بني ماء السماء[٣]، يعني هاجر – عليها السلام .

فسبحان الحكيم العليم حَزِن إبراهيم – عليه السلام – لما أخذ الملك الجبار زوجته سارة، فنجت منه، ثم أهدى إليها هاجر لتخدمها، ثم أهدت سارةُ هاجرَ إلى إبراهيم، فأخرج الله من رحمها إسماعيل – عليه السلام – ثم بعد ذلك أخرج الله من سلالته أفضل الخلق – عليه الصلاة والسلام– فتمخض عن حزن إبراهيم ولادة

---

(١) لما لم يستطع أن يمسها تركها، ثم أهدى إليها جارية، وهي هاجر- عليها السلام- لتخدمها.

(٢) مهيا: كلمة يستفهم بها، معناها: ما حالك وما شأنك؟ حيث أشار إليها إبراهيم بيده وهو يصلي ففهمت الإشارة، وأنه يستفهم عن حالها.

(٣) بني ماء السماء: قيل أراد بهم العرب، لأنهم يعيشون بالمطر، ويتبعون مواقع القطر في البوادي لأجل المواشي، وبهذا احتج من زعم أن العرب كلهم من ولد إسماعيل، وقيل أراد بماء السماء زمزم، لأن الله أنبعها لهاجر فعاش ولدها بها، فصاروا كأنهم أولادها... ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤٥٤/٦).

خير البرية – عليهما أفضل الصلاة والسلام – فتحققت دعوة إبراهيم عليه السلام – ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[١].

فكان – عليه الصلاة والسلام- رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

فسبحان من أبدل حزن الخليل – عليه السلام- بسرور وحبور ورحمةٍ للعالمين، وصدق الله – عز وجل – ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

وفي قصة إبراهيم هذه فوائد كثيرة اقتصر على واحدة منها حتى لا يطول المقام : قال ابن حجر: (وفيه أن من نابه أمر مهم من الكرب ينبغي له أن يفزع إلى الصلاة)[٣] وذلك أن إبراهيم – عليه السلام- لما أخذ الجبار زوجته فزع إلى الصلاة، فأنجاها الله من شره[٤].

---

(١) سورة البقرة (١٢٩).

(٢) سورة الأنبياء آية (١٠٧).

(٣) فتح الباري (٦/٤٥٤).

(٤) من مصادر هذه القصة: صحيح البخاري (٣/١٢٢٥) رقم الحديث (٣١٧٩)، صحيح مسلم مع شرح النووي (٨/١٣٥)، فتح الباري (٦/٤٥٤).

القصة الثانية

الحزن العميق ينقلب إلى سعادة في بيت النبوة

إنها قصة المرأة التي توالت عليها المحن فصبرت وتجلدت، لكن المحنة الأخيرة أخذت منها كل مأخذ، إنها هند بنت سهيل بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو المخزومية القرشية، أم المؤمنين، أم سلمة - رضي الله عنها- أما أبوها فهو سهيل بن المغيرة الملقب بـ (زاد الراكب) لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته من الزاد، تزوجها ابن عمها أبوسلمة عبدالله بن عبدالأسد بن هلال المخزومي، فسعدت به سعادة كبيرة، وكانت وزوجها من السابقين الأولين إلى الإسلام، بل لم يسلم قبلهما إلا عشرة أنفس[1]، ولما شاع نبأ إسلامهما في مكة هاجت قريش وأخذت تصب عليهما وعلى من أسلم معهما ألوان العذاب، ولما اشتدَّ عليهما وعلى المسلمين العذاب والأذى، أذن الرسول ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة، فكانت أم سلمة وزوجها على رأس المهاجرين ولما بلغ المسلمين في الحبشة أن حمزة بن عبدالمطلب

(١) ينظر الاستيعاب رقم الترجمة (١٦٠٧)، أسد الغابة رقم (٣٠٣٨) الإصابة (١٣١/٤) رقم (٤٨٠١).

وعمر بن الخطاب قد أسلما ، وأخذا يذبان عن الدين ويدافعان عن ضعفاء المسلمين ، عزم فريق منهم على الرجوع إلى مكة ، فكانت أم سلمة وزوجها في طليعة العائدين. لكن قريشاً سرعان ما عادت من جديد تنكل بالمسلمين، وتذيقهم مرَّ العذاب فأذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى، فعزمت أم سلمة وزوجها على الهجرة، لكن قصة الهجرة لهذين الزوجين وابنهما الرضيع (سلمة) كانت شاقة ومحزنة، روتها أم سلمة فقالت:«لما أجمع أبو سلمة على الخروج إلى المدينة رحّل بعيراً له وحملني وحمل معي ابني سلمة ثم خرج يقود بعيره، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علامَ نتركك تسير بها في البلد؟ ونزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد فذهبوا إلى سلمة، فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبدالأسد رهط أبي سلمة. ،وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة وفرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي، مكثت سنة أو قريباً منها ، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، فرأى ما في وجهي فرحمني فقال لبني المغيرة ألا تخرجوا هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها! فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت وردَّ علي بنو عبدالأسد ابني

فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله فكنت أُبلغ من لقيت حتى إذا كنتُ بالتنعيم لقيتُ عثمان بن طلحة أخا عبدالدار فقال: أين يا بنت أبي أُميّة؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة فقال هل معك أحد؟ فقلت لا والله إلا الله وابني هذا، فقال: والله مالك من تُرْكٍ فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يقودني، ووالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه أكرم منه، إذا نزل منزلاً أناخ بي ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري قدّمه ورحله ثم استأخر عني، وقال: اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى إليّ فأخذ بخطامه فقادني حتى نزلت، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء قال زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعاً إلى مكة»[1].

اجتمع شمل الزوجين في المدينة ورفرف الهناء بجناحيه عليهما، وسعدت أم سلمة بزوجها الذي تحبه من أعماق قلبها، ورزقت منه أولاداً، وعكفت على تربيتهم.

خرج رسول الله ﷺ لبدر وكان أبو سلمة في طليعة الخارجين معه ثم عاد منها مع المسلمين وقد انتصروا نصراً مؤزراً، ثم نادى

---

(١) ينظر أسد الغابة رقم (٧٤٧٢)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب رقم (٣٦١٧) تهذيب التهذيب (٤٧١/١٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٤٠٤/٨) رقم الترجمة (١٢٠٦٥).

منادي الجهاد في معركة (أحد)، فخاض أبو سلمة غمارها، وأبلى بلاءً حسناً لكنه عاد منها جريحاً، فقد رمي بسهم في عضده، ظل يداويه حتى ظن أنه التأم فانتقض جرحه، فمات لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة، فحزنت عليه أم سلمة حُزناً عظيماً، كيف لا تحزن وهو ابن عمها وصفي فؤادها وأبو أولادها طابت المودة والعشرة بينهما حتى أصبحا من الألفة شيئاً واحداً إلا أنهما يتقلبان في جسدين.

عن أم سلمة – رضي الله عنها – قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها. إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها**)قالت: فلما توفّي أبو سلمة قلت ما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ [1].

قال الحافظ ابن حجر: «وأخرج البغوي من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت: حدثني ابن أم سلمة أن أبا سلمة جاء إلى أم سلمة فقال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً أحب إليّ من كذا وكذا، سمعته يقول: (**لا يصيب أحداً مصيبة فيسترجع الله، ثم يقول اللهم عندك أحتسب مصيبتي هذه، اللهم اخلفني خيراً منها إلا أعطاه**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٩١٨- ٩١٩) وأبو داود رقم (٣١١٥) والترمذي رقم (٩٧٧).

الله)[1]، قالت أم سلمة فلما أصيب أبو سلمة قلت، ولم تطب نفسي أن أقول: اللهم اخلفني خيراً منها، ثم قلتُ: من خير من أبي سلمة! أليس؟ أليس ؟ ثم قلت ذلك. فلما انتهت عدتها تقدم إليها أبو بكر – رضي الله عنه – فرفضت طلبه في رفق، ثم تقدم إليها عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – فردته بلطف، بعد ذلك بعث إليها النبي ﷺ يخطبها، تقول أم سلمة – رضي الله عنها – لما خطبني رسول الله ﷺ قلت: فيَّ خلال لا ينبغي أن أتزوج رسول الله ﷺ بسببها: أني امرأة مسنّة وأم أيتام وأني شديدة الغيرة قالت: فأرسل إلي رسول الله ﷺ: **(أما قولك أني مسنة فأنا أسن منك، ولا يعاب على المرأة أن تتزوج أسنَّ منها، وأما قولك بأني أم أيتام فإنهم جميعاً على الله ورسوله، وأما قولك بأني شديدة الغيرة فإني أدعو الله أن يذهب ذلك عنك)**[2]. ثم تزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال سنة أربع فصارت إحدى أمهات المؤمنين وسعدت في بيت النبوة وانقلب حزنها سروراً، وكآبتها بهجة وحبوراً، وصدق الله العظيم ﴿ **فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا** ﴿١٩﴾ ﴾[3].

---

(١) ينظر كتاب الإصابة في تمييز الصحاب (١٣٢/٤) وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢٢٧/٢).

(٢) أورد ابن حجر هذه الرواية في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة (٤٠٦/٨)، وانظر الطبقات الكبرى (٧٣/٨) ط : دار الكتب العلمية.

(٣) النساء : (١٩).

وقد روت للأمة عشرات الأحاديث عن رسول الله ﷺ وكانت آخر أمهات المؤمنين موتاً – رضي الله عنها وأرضاها – فقد توفيت في شوال سنة تسع وخمسين ولها من العمر أربع وثمانون وقيل ماتت في ولاية يزيد بن معاوية. والله أعلم.

القصـــة الثالثة

حُزْن خمســة أطــراف، حزن أحدهم كاد يفطر الكبد

ما أن بزغت شمس الإسلام في المدينة إلا والنفاق يخيم بظلامه، وضلاله معلناً الحرب من الداخل على الإسلام ونبيه والمؤمنين، والسعي للفساد والفتنة، وقلب الحقائق، وإثارة الشبه والشكوك، وخلق الأراجيف، كل ذلك سعياً لإطفاء نور الله، وعرقلة مسيرة دعوة الإسلام، وخلق الحزن والوهن في قلوب المؤمنين، إلى غير ذلك من المكائد الخبيثة. ولذا فالمنافقون هم الداء العضال في جسم الأمة الإسلامية، ولهذا حذَّر الله نبيه منهم فقال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾[1].

ولقد عانى رسول الله ﷺ منهم أشد المعاناة، فقد آذوه في كل أمرٍ من أموره، بل وعارضوه في كل مقام، ولحقه العنت والمشقة من دسائسهم وحبائلهم.

ومن مكائدهم العظيمة، وافتراءاتهم الجسيمة تلك الحادثة التي نسجوا خيوطها، وسعوا في إشاعتها في أوساط المدينة، وحزن

---

(١) سورة المنافقون: (٤).

من أجلها حزناً شديداً خمسة أطراف شهراً كاملاً ، إنها حادثة الإفك على الطاهرة النقية أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها – ذلك الحزن العظيم الذي انجلى – بحمد الله – عن حسن عاقبة للنبي ﷺ وزوجه والمؤمنين، ونتج من تلك الحادثة الدروس البليغة المفيدة للمؤمنين إلى قيام الساعة عندما يواجهون الباطل، وعندما توجَّه لهم التهم الباطلة، والأقاويل الحاقدة.

والأطراف التي امتحنت بتلك الحادثة هي:

الطرف الأول: رسول الله ﷺ الذي رُمي في زوجته، وأحب الناس إليه، وحاول المبطلون تدنيس فراشه، وتحدث من تحدث بذلك والألم يعصر قلبه، ويتعب فؤاده، فيتجلد ويصبر متوكلاً على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ولذا لم يتعرض لأحد، بل ينتظر وحي السماء.

الطرف الثاني: أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق التي رُميت في طهرها وعفافها، وألصق بها الإفك المبين، والافتراء الآثم، وبقيت في هذه المحنة شهراً كاملاً، كاد الحزن يقطّع أنياط قلبها، والبكاء يضطر كبدها، تقرحت أجفانها من طول البكاء، فلا ليلها ليل، ولا نهارها نهار حتى تأثرت زائراتها من نساء المهاجرين والأنصار، وتألمن لواقعها، وبكين لمشهدها، وتلك قصتها روتها بنفسها كما أخرجها الإمام البخاري بسنده عن ابن شهاب قال أخبرني عروة ابن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص

وعبيد اللّه بن عبداللّه بن عتبة بن مسعود عن عائشة – رضي اللّه عنها – زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها اللّه مما قالوا– وكلٌ حدثني طائفةً من الحديث وبعض حديثهم يصدِّق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض – الذي حدثني عروة عن عائشة – رضي اللّه عنها– زوج النبي ﷺ أنها قالت:«كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها رسول اللّه ﷺ معه»، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[1][2] فخرج سهمي فخرجت مع رسول اللّه ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول اللّه ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، قمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقدٌ لي من جزع أظفار[3] قد

---

(١) في غزوة غزاها: هي غزوة بني المصطلق صرح بذلك ابن إسحاق من رواية عباد بن عبدالله بن الزبير وعمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة من طريق ابن إسحاق أخرجها ابن جرير الطبري، وعند أبي يعلى من رواية ابن كيسان عن الزهري عن عروة وابن المسيب وعلقمة وعبيدالله ولفظه (قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق) .. إلخ.

(٢) (سيرة ابن هشام (٢/٢٩٧)، وتاريخ الطبري (٢/٦١١)، وتفسيره (١٨/٩٣)، ومسند أبي يعلى (٤/٤٥٠) وفتح الباري (٨/٤٥٨).

(٣) جَزْع : بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها مهملة خرز معروف في سواه بياض كالعروق. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/٢٦٩).

انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[1] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على البعير الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يقلهن اللحم، إنما يأكلن العُلْقَة[2] من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعه، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ ... فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن معطل السلمي الذكواني[3] من وراء الجيش فدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني

---

(١) الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه ويجمع على أرهط وأرهاط جمع الجمع (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/٢٨٣).

(٢) بضم العين: البلغة من الطعام قدر ما يمسك الرمق، تريد القليل، جامع الأصول (٢/٢٧٢).

(٣) الذكوانيّ : نسبة إلى ذكوان بن ثعلبة بن بهتة بن سليم، وذكوان بطن من بني سليم... (فتح الباري (٨/٤٦١).

(٤) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون وصرح بها ابن إسحاق في روايته وكأنه شق عليه ما جرى لعائشة أو خشي أن يقع ما وقع أو أنه اكتفى بالاسترجاع رافعاً به صوته عن مخاطبتها بكلام آخر صيانة لها عن المخاطبة في الجملة. فتح الباري (٨/٤٦٣).

كلمـة ولا سمعـت منـه كلمـة غيـر اسـترجاعية ، حتـى أنـاخ راحلتـه فـوطئ علـى يـدها فركبتهـا ، فـانطلق يقـود بـي الراحلـة حتـى أتينـا الجـيش بعـدما نزلـوا مـوغرين[1] في نحـر الظهـيرة ، فهلـك مـن هلـك ، وكـان الذي تـولى الإفـك عبـدالله بن أُبـي بن سـلول ، فقـدمنا المدينـة ،فاشتـكيتُ حـين قدمتُ شـهراً ، والنـاس يفيضـون في قـول أصـحاب الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف مـن رسـول الله ﷺ اللطـف الـذي كنـت أرى منـه حـين أشـتكي إنمـا يـدخل علـيّ رسـول الله ﷺ فيـسلم ثـم يقـول: كيـف تِـيكُمْ؟ ... ثـم ينصرف ،فذاك الذي يريبني ولا أشعر ، حتى خرجت بعدما نقهت[2] فخرجت معي أم مسطح قِبَل المناصع[3] ، وهو متبرزنا وكنـا لا نخـرج إلا لـيلاً إلى ليل وذلـك قبـل أن نتخـذ الكُنُـف[4] قريبـاً مـن بيوتنـا ، وأمرنا أمر العرب الأُول في التبرز قِبَل الغائط ، فكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح[5]- وهـي ابنـة أبـي

---

(١) مُوغرين: الوغرة: شدَّة الحر. جامع الأصول (٢/٢٧٢).

(٢) نقه المريض : من باب طرب وخضع إذا برأ وأفاق وكان قريب العهد من مرض ولم يرجع إليه كمال صحته وقوته (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير) (٥/١١).

(٣) المناصع: المواضع التي يتخلى فيه لقضاء الحاجة واحدها منصع كمقعد. (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير) (٥/٦٥).

(٤) الكنف جمع كنيف: المكان الساتر وأرادت به هنا المكان المعد لقضاء الحاجة (القاموس المحيط) (٣/١٩٢).

(٥) قال ابن عبدالبر اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن سعد بن تيم ،

=

رُهْم بن عبدمناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أُثاثة[١]– فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرتْ أم مسطح في مرطها[٢]، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أيْ هَنْتاهْ[٣]، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ ،ثم قال: **كيف تِيكُمْ**؟ فقلت أتأذن لي أن آتي أبويَّ – قالت: وأنا حينئذ أريد أستيقن الخبر من قبلهما – قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمّاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنيَّة هوني عليك، فوالله لقلّما

=

قال ابن حجر: رائقة: انظر فتح الباري (٨/٤٦٥)، والاستيعاب على هامش الإصابة (٣/٤٩٤)، وطبقات ابن سعد (٨/٢٢٨) (٣/٥٣، ١٦٩) وأسد الغابة لابن الأثير (٤/٣٠٨)، (٥/١٥٦).

(١) هذا لقب واسمه عوف ويكنى بأبي عباد أو عبدالله توفي عام (٣٤هـ) في خلافة عثمان وقيل عاش إلى خلافة علي وشهد معه صفين ومات سنة (٣٧هـ) .الإصابة (٣/ ٤٠٨)، وأسد الغابة (٤/٣٠٨).

(٢) المرط بكسر الميم واحد المروط وهي أكسية من صوف أو خز كان يتزر بها. مختار الصحاح ص (٤١٢).

(٣) هنتاه : بفتح النون وسكونها وضم الهاء الآخرة وتسكن: معناها يا بلهاء كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم . (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/٢٧٠- ٢٨٠).

كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يُحبُّها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله، أو قد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرْقَأُ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحتُ أبكي. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد – رضي الله عنهما – حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة[1]، فقال: **(أي بريرة هل رأيتِ من شيء يريبك؟)**قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[2] فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبدالله بن أُبي بن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: **(يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان**

---

(١) أي الجارية التي كانت في بيتها وملازمة لها.

(٢) الداجن: بدال مهملة ثم جيم: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى، وقيل غير ذلك. فتح الباري (٨/٤٧١).

يدخل على أهلي إلا معي) فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك... قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية وقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير – وهو ابن عم سعد بن معاذ – فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين... فتثاور الحيان: الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ،فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت

لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال... قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت فقلت لأمي أجيبي رسول الله ﷺ قالت : ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت: فقلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن – : إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم إني بريئة – والله يعلم إني بريئة – لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أني منه بريئة – لتُصدّقّني والله ما أجد لكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف **(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)** قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي .

قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله بي بأمرٍ يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها... قالت: فوالله ما رام [1] رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء[2] حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان[3] من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه.

---

(١) أي ما برح وما فارق مجلسه (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير) (٢/ ٢٩٠).

(٢) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي ... المصدر السابق (١/١١٣).

(٣) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار، وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ ... المصدر السابق (١/٣٠١).

. قالت: فلما سُرّي[١] عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة: أمّا الله فقد برّأك، فقالت أمي: قومي إليه، قالت فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزَّ وجل، وأنزل الله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢] العشر الآيات كلها... فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[٣] قال أبو بكر : بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما

---

(١) سري: كشف عنه ما يجده من الهم والثقل ... (مختار الصحاح) (٣٩٧).

(٢) سورة النور : (١١) .

(٣) سورة النور: (٢٢) .

علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[2].

الطرف الثالث: أبو بكر الصديق الذي رُمي في أعز شيء إليه وهو شرفه وعرضه وافتري على بيته بانتهاك الدين والخلق والمروءة، حتى إنه يعلن عن عظم البلية بقوله: «والله مارمينا به في الجاهلية، أفنرمى به في الإسلام!!؟)[3] ولم يستطع أن يتمالك نفسه لما رأى ابنته المظلومة المجني عليها وقد تجرحت أجفانها فيبكي- رضي الله عنه – بكاءً مُراً، ولاغرو فقد أدمى الألم فؤاده، واعتصر قلبه، إنها محنة عايشها أبو بكر منذ اللحظة الأولى حتى أتى الفرج من السماء.

---

(١) أي تعاليني وتفاخرني وهو مفاعلة من السمو أي تطاولني عنه ﷺ (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير) (٢/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في باب قوله: (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً..) الآية (١٧٧٤/٤) رقم الحديث (٤٤٧٣)، ومسلم في باب التوبة رقم الحديث (٢٧٧٠)، والترمذي في التفسير رقم الحديث (٣١٧٩)، والنسائي في الطهارة (١٦٣/١- ١٦٤)، وقد جمع الإمام ابن الأثير روايات الحديث في كتابه جامع الأصول في أحاديث الرسول (٢٦٨/٢ وما بعدها) وساق المحقق في الهامش جملة من الفوائد التي استنبطها العلماء من هذا الحديث جاوزت الخمسين.

(٣) تاريخ الواقدي (٢/ ٤٣٣) وتاريخ الطبري (٢/ ٦١٦).

الطرف الرابع: صفوان بن المعطل رضي الله عنه الذي رمي بالإفك وهو من أفضل المهاجرين المجاهدين، أثنى عليه الرسول ﷺ بقوله : (**ما علمت عليه إلا خيراً**) جعله الرسول ﷺ على ساقة الجيش فيتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع وهذه المهمة ، وهي تفقد مؤخرة الجيش، والتقاط ما يسقط من المتاع لا تُسند إلا لمن عُرف بالصدق والأمانة وعفة النفس، والقيام بهذه المهمة هي التي جعلت صفوان يجد أم المؤمنين في معسكر الجيش. لقد عاش المحنة وأحزنه حديث الإفك، وكان غيوراً شجاعاً.

الطرف الخامس: المؤمنون في المدينة من المهاجرين والأنصار الذين أحزنهم صنيع المنافقين ، وترويجهم للإفك والبهتان، وتدنيسهم فراش نبيهم ﷺ والوقوع في عرض وشرف أم المؤمنين، وإشاعة الكذب والزور على المؤمنين ولذا وقفوا مدافعين عن عائشة أم المؤمنين، وظنوا الحسن والطهر والعفاف فيها.

لقد نزلت براءة أم المؤمنين من الذي يعلم السر وأخفى فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآيات[1].

وانجلت المحنة ، ويالله كم في طياتها من منح ودروس وأحكام وعظات للمؤمنين ، رسمت لهم طريق التعامل مع الباطل، والدسائس

---

(١) سورة النور : (١١).

الماكرة من أعدائهم في الداخل، وما يجب أن يكون عليه المؤمنون من تجسيد المحبة والألفة بينهم، وظن المؤمن بأخيه خير، كما يظن بنفسه خيراً؛ فالمسلمون جسد واحد، وإن أعراضهم محترمة في الإسلام فلا يجوز بحال أن تكون مادة للهو والعبث والقيل والقال وصدق الله العظيم: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ ﴾[1] و﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

لقد انكشفت الغمة عن أم المؤمنين، وأبدل الله حزنها العميق ببراءة نزلت من فوق سبع سماوات، قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة... وصدق الله بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

(١) سورة النور: (١١).

(٢) سورة النساء: (١٩).

القصة الرابعة

حزن الأمة السوداء ينقلب سعادة بالإسلام

روت عائشة (أم المؤمنين) – رضي الله عنها – قصتها، كما ورد في صحيح البخاري وغيره، وخلاصتها بالمعنى: كانت أمة سوداء رقيقة لناسٍ من العرب في الجاهلية، فأعتقوها، ثم مكثت بعد العتق عندهم بقوتها فقط، وكان لهم بنت صغيرة، يحبونها حباً شديداً، ويلبسونها أجمل الثياب، وأغلى الحلي، فذات يومٍ ألبسوها وشاحاً[١] أحمر جميلاً، وذهبت تلعب ،وكانت حولها المرأة السوداء، فبينما البنت تَمرحُ وتلعب سقط منها الوشاح، فجاءت الحُدأة[٢] فالتقطته ، فلما رأى أهلها أنه لا وشاح على ابنتهم، اتهموا المرأة السوداء، أنها سرقته، فكلموها: أين وشاح الطفلة؟ فقالت: وقع من البنت وهي تلعب فخطفته الحُدأة، فكذبوها وزجروها، وألحوا عليها بإحضاره فنفت التهمة عنها بشدة، فما كان منهم إلا أن فتشوها، حتى أنهم فتشوا فرجها، فبكت وحزنت لهذا الاتهام

---

(١) الوشاح: نسيج من حلى مرصع بالجواهر، تشد المرأة بين عاتقها وكشحها.

(٢) الحدأة: طائر أكبر من الحمامة بقليل، يأكل الجرذان، ويخطف كل شيء أحمر يظنه لحماً.

وما فعلوه بها أشدَّ الحزن.

قالت: فدعوت الله أن يبرئني، قالت: فلَّما كان بعد قليل جاءت الحُدأة وهم ينظرون، وإني والله قائمة معهم فألقته، فوقع بينهم، فقلتُ: هذا الذي اتهمتوني به، وأنا منه بريئة، فلم يعتذروا منها، ففادرتهم مغضبة محزونة، وولت وجهها شطر المدينة النبوية، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت واغتبطت بإسلامها.

قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لها خباءٌ في المسجد، قالت: فكانت تأتيني فتتحدثُ عندي، قالت: فلا تجلس عندي مجلساً إلا قالت:

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

قالت عائشة: فقلت لها: ما شأنك لا تقعدين معي مقعداً إلا قلت هذا؟ قالت: فحدثتني بهذا الحديث[1].

---

(١) القصة أخرجها البخاري في صحيحه (أبواب المساجد) (١٦٨/١).

القصة الخامسة

حزن القفال يعقبه الإمامة في الدين

روى أصحاب السير، ومنهم ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»[1] قصة أبي بكر القفّال المروزي –رحمه الله– وخلاصتها:

كان أبوبكر المروزي يصنع الأقفال في بلده (مرو) من بلاد خراسان، منذ صغره، ولذا لُقِب بـ (القفال) واستمرّ على ذلك حتى سن الأربعين، وذات مرَّة صنع صانعٌ للأقفال يُدعى (الشاشي) قفلاً صغير الحجم وله مفتاح ، فأُعجب الناس به جداً، وأصبح هذا القفل وصاحبه حديث المجالس في (مرو) كيف استطاع هذا الرجل صنع هذا القفل الصغير، وانتشر خبر هذا القفل حتى خارج مدينة (مرو)، فعند ذلك أراد أبو بكر منافسة هذا الرجل، فأجتهد وتعب في صنع قفل صغير جداً له مفتاح، يساوي ربع وزن قفل الشاشي، ثم بدأ يُريه الناس، ويطوف به في الأسواق، فاستحسنوه وتعجبوا من دقته، لكنه لم يبلغ من الشهرة والصيت ما بلغه قُفل الشاشي، فاغتَّم لذلك وحزن، ثم شكى إلى أحد أصدقائه قائلاً: ألا ترى كلَّ شيء

---

(١) ينظر: معجم البلدان (١٣٦/٥) عند حديثه عن مدينة (مرو).

يفتقر إلى الحظ؟ قال صاحبه: كيف ؟ قال: صنع الشاشي قفلاً وزنه دانقٌ ، وطنَّت به البلاد ، وعملت أنا قفلاً بمقدار ربعه فما ذكرني أحد ! فقال له صاحبه: يا أخي إنما الذكر الرفيع ، والأجر العظيم بالعلم وليس بصنع الأقفال، فطنَّت هذه الكلمة في رأسه، فقال: أعد أعد عليَّ يا أخي. ما قلت ، فأعاد عليه العبارة نفسها ، ثم تفرقا ، فبدأ يُردِّد هذه العبارة بينه وبين نفسه (الذكر الرفيع والأجر العظيم بالعلم لا بصنع الأقفال)، ثم صمَّم بعد ذلك، وعزم على طلب العلم، فذهب إلى شيخ يُدرس العلم في أحد مساجد (مرو). فعرفه رغبته في طلب العلم، فرحَّب به الشيخ، ثم جدَّ واجتهد ، وقد عانى مشقة في أول الطلب، لكن ما لبث أن خاض غمار العلوم صابراً مجتهداً حتى صار وحيد زمانه، فقهاً وعلماً، وبزَّ أقرانه، وطار صيته في الآفاق، ورحل إليه طلاب العلم من أماكن كثيرة، وانتشر علمه في الآفاق، وصار أحد أركان مذهب الإمام الشافعي في زمانه.

قال ابن العماد – رحمه الله – في ثنايا ترجمته للقفال: (.. قال الحافظ أبو بكر السمعاني في (أماليه) : أبو بكر القفَّال، وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً ، وله في المذهب من الآثار ما ليس لغيره من أهل عصره، وطريقته المهذبة في مذهب الشافعي ، التي حملها عنه أصحابه أمتن طريقة ، وأكثر تحقيقاً رحل إليه الفقهاء من البلاد ، وتخرج به أئمة ، وذكره القاضي حسين فقال: إن أبا

بكر القفال كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء في الدرس، ثم يرفع رأسه ويقول: ما أغفلنا عمَّا يراد بنا)[١].

قال ياقوت الحموي: عاش أبو بكر القفال ثمانين سنة، أربعين جاهلاً، وأربعين عالماً ... ومات سنة (٤١٧هـ) عليه رحمة الله)[٢].

فأبدل الله حزنه سعادة وغبطة بالعلم وصدق الله: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾.

---

(١) شذرات الذهب (٣/٣٥٩).

(٢) معجم البلدان (٥/١٣٦).

القصة السادسة

عالم أمتحن وحزن فكان سبباً لرفعته

العالم الجليل الفقيه المفسر، شهاب الدين أحمد بن إسماعيل الكوراني، المتوفى سنة (٨٩٣) للهجرة، أصله من الأكراد، ارتحل في طلب العلم إلى بلدان كثيرة، وبعدما تأهَّل للتعليم حطّ عصا الترحال في مصر، فاستوطنها وتزوَّج بها، وجلس لتعليم الناس، فانكبَّ إليه خلق كثير من الطلاب، فنهلوا من علومه، وارتفع شأنه وصيته.

وذات يوم جرى بينه وبين رجلٍ يزعم أنه من نسل الإمام أبي حنيفة شجار، فذهب هذا الرجل إلى السلطان فزعم أن الشيخ شتم الإمام أبا حنيفة – رحمه الله – فنفى الشيخ أحمد ذلك، وقال : والله لا أعرف أحداً من آبائه ، ولم أقصد الإمام أبا حنيفة– رحمه الله بسوء ، لكن الحاقدين على الشيخ أوغروا صدر السلطان، فأمر بسجن الشيخ، ثم أحيل إلى قاضي الحنفية، فحكم عليه بالتعزيز ثمانين جلدة، وأن ينفى من البلاد، فضرب العدد، وأُمر بمغادرة مصر. فحزن الشيخ حزناً شديداً، لأنه تزوَّج فيها، وطاب له المقام، ثم نفع الله به في نشر العلم، لكن الشيخ لم يجد بداً من

مغادرة البلاد، فتوجَّه نحو إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، فعينه السلطان العثماني محمد الفاتح قاضياً في العسكر، ثم ازداد رفعةً يوماً بعد يوم عند السلطان فنقل من قضاء العسكر إلى مَنصب الإفتاء، فكان مفتي الدولة، وله الكلمة المسموعة، وتردَّد عليه الأكابر، ثم أنشأ جامعاً ومدرسة سمَّاها دار الحديث في إسطنبول، واستمَرَّ في إجلال وتقدير، فأبدل الله ذلك الحزن بسرور، وذاك الذل برفعة، واستمرَّ في مقامه إلى أن توفي سنة (٨٩٣هـ) عليه رحمة الله.

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - في ثنايا ترجمة الشيخ أحمد: "وقد لطف الله بالمترجم له بمرافعته إلى حاكم حنفي، فلو رُفع إلى مالكي لحكم بضرب عنقه، وقبَّح الله هذه المجازفات، والاستحلال للدماء والأعراض بمجرد أشياء لم يوجب الله فيها إراقة دم ولا هتك عرض، فإن ضرب هذا العالم الكبير نحو ثمانين جلدة ونفيه وتمزيق عرضه، والوضع من شأنه بمجرد كونه شاتم من شتمه ظلم بيِّن، وعسف ظاهر، ولاسيما إذا كان لا يدري بانتساب من ذُكر إلى ذلك الإمام، لاجرم قد أبدله الله بسلطانٍ خيراً من سلطانه، وجيرانٍ أفضل من جيرانه، ورزقٍ أوسع مما منعوه منه، وجاهٍ أرفع مما حسدوه عليه، فإنه لما خرج توجَّه إلى مملكة الروم...

وحسنت حاله هناك جداً...][1].

وصدق الله العظيم و﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

---

(١) البدر الطالع (٣٩/١).

القصة السابعة

حُزن عماد الدولة ابن بويه ينقلب سعادة

عماد الدولة ابن بويه هو أبوالحسن علي بن بُويَه الديلمي، المتوفى سنة (٣٣٨هـ) ، وهو أول من ملك من بني بُوَيه، وكان أبوه صيَّاداً للأسماك، وليس له عيشة إلا صيد السمك، وكان له ثلاثة أبناء ، لكن عماد الدولة هو سبب سعادتهم، وانتشار صيتهم، فقد جهزوا الجيوش واستولوا على بلاد كثيرة، وملكوا العراقين، والأهواز وفارس، وساسوا الرعية أحسن سياسة ، رفقاً وعدلاً وإحساناً، ولو سلموا من التشيع لما كان الإطراء كثيراً عليهم.

أما قصة حُزْن عماد الدولة، فإنه لما جهَّز الجيوش واستولى على شيراز، اجتمع أصحابه والجند يطالبونه بالأموال (المرتبات) ولم يكن معه ما يكفيهم، ولذا أشرف أمره على الانحلال، فحزن واغتمَّ لذلك، فدخل أحد القصور في إحدى المدن التي استولى عليها ، فاستلقى على ظهره في مجلسٍ قد خلا فيه للفكرة والتدبير، وقد علاه الهم والحزن من أين يأتي بالمال ليقوم بخراج أصحابه والجنود ، فبينما هو غارق بالتفكير إذ رأى حَيَّةً قد خرجت من موضع من سقف ذلك المجلس، ودخلت موضعاً آخر منه، فخاف أن

تسقط عليه إذا نام وزاد حزنه، فدعا الخدم ، وأمرهم بإحضار سُلَّمٍ، وأن تخرج الحيَّة، فلمَّا صعدوا وبحثوا عن الحيَّة، وجدوا ذلك السقف يفضي إلى غرفة بين سقفين، فأخبروه بذلك، وكان واقفاً معهم فأمرهم بفتحها، ففتحوها فوجدوا فيها عدَّة صناديق، فأمر بإنزالها، فلما فتحها وإذا هي كنوز عظيمة من الذهب والمصاغات، فقدَّرها وإذا هي حوالي خمسمائة ألف دينار، فسرَّ بذلك وانقلب حزنه سروراً، فأنفقها في رجاله وثبت أمره، بعد أن أشفى على الانخرام[1] . وصدق الله ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ و﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/١٩٠)، شذرات الذهب لابن العماد (٣/١٥٣).

القصة الثامنة

حَزن لعدم الجدِة لسداد الديون

فتمحض الحزن سروراً بالغنى

إنها قصة تحكي الجود وسخاء النفس، وكرم الشمائل، كما تصور من جانبٍ آخر أن العُسْرَ يتبعه اليسر، وأن المرء قد يحزن ويضيق بالنازلة، ويكره ما حلَّ به فيأتي الفرج من العزيز الكريم الغفور، فيولد من رحم الحزن الخير الكثير.

كان دَعْلج بن أحمد السجستاني ثم البغدادي المتوفى سنة (٣٥١هـ) المحدث الفقيه الجواد، من ذوي اليسار، وكان كريماً جواداً محسناً، أوقف أوقافاً على أهل الحديث في بغداد وغيرها، كان تاجراً يضرب في الأرض يبتغي الفضل من الله، أتى إليه رجل صالح من عامة الناس في بغداد فاستدان من دعلج ما قيمته خمسة آلاف درهم إلى أجل، فلما بلغ الأجل، لم يكن لديه وفاء، فأصبح يتخفي في منزله ولا يشهد صلاة الجماعة خشية أن يراه أحد رجال دعلج فيطالبه بالوفاء، فلما كان يوم الجمعة، شقَّ عليه أن يترك صلاة الجمعة، فتلثَّم وتنكَّر وغدا إلى المسجد مبكراً... قال الخطيب البغدادي – وهو ممن روى القصة بسنده – قال الراوي: حضرتُ مبكراً يوم جمعة المسجدَ الجامع ببغداد، فرأيت رجلاً بين

يديٍّ في الصف حسن الوقار ظاهر الخشوع، دائم الصلاة، فلم يزل يتنفل منذ دخل المسجد إلى أن قرب قيام الصلاة ، فغلبتني هيبته ودخل قلبي محبته، ثم أقيمت الصلاة فلم يُصلِّ مع الناس الجمعة، بل جلس، قال الراوي: فَكبُر عليَّ ذلك من أمره، — تعجبتُ — من حاله، وغاظني فعله، فلما قضيت الصلاة تقدمت إليه وقلت: أيها الرجل ما رأيت أعجب من أمرك! ، أطلت النافلة وأحسنتها وتركت الفريضة وضيعتها! ، فقال: يا هذا إنَّ لي عُذراً وبي علة منعتني من الصلاة ، قلت : وما هي؟ قال: أنا رجل عليَّ دين اختفيتُ في منزلي مدة بسببه، ثم حضرت اليوم الجامع للصلاة فقبل أن تقام التفتُ فرأيتُ صاحب الدين، فمن خوفه أحدثتُ في ثيابي، فهذا خبري،ولم أستطع تخطى الصفوف لأخرج، وسألتك بالله إلا سترت عليَّ وكتمت أمري، قال الراوي: وقد علاه الحزن والخجل، فقلت: ومن الذي له عليك الدين؟ قال: دعلج بن أحمد ، وكان إلى جانبه صاحبٌ لدعلج قد صلى بجنبه وهو لا يعرفه قد أطرق بسمعه فلم يفته شيء من القول، فنهض في الحال إلى دعلج فذكر له القصة، فقال له دعلج: امض إلى الرجل واحمله إلى الحمام، واطرح عليه خلعة من ثيابي، ودعه يصلي ثم أحضره إلى منزلي، ففعل الرجل ذلك، فلما حضر إلى منزل دعلج حيَّاه ورحَّب به، ثم أمر بالطعام فأحضر وأكل هو والرجل، ثم بعد ذلك أمر بإحضار حسابه فنظر فيه، فإذا عليه خمسة آلاف درهم، فقال له دعلج: هذا الذي بذمتك لنا؟ فقال

الرجل : نعم، فقال دعلج: قد سامحناك فيه وأنت في حلٍ ، ثم وضع تحته علامة الوفاء، ثم أحضر الميزان ووزن له خمسة آلاف درهم، وقال له: أسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم وتجعلنا في حلٍ من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيانا في المسجد فقام الرجل ودعا له وقبَّل رأسه ثم انصرف إلى بيته مسروراً غانماً[1]. وصدق الله -عز وجل و﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾.

---

(١) تاريخ بغداد (٣٨٧/٨)، العبر للذهبي (٢٩١/٢) وفيات الأعيان (٣٢٣/١)، سير أعلام النبلاء (٣٠/١٦)، تهذيب سير أعلام النبلاء للشريف (١١٤٩/٢).

القصة التاسعة

شاب مغترب تسرق نقوده

حدثني أحد كبار السن قال: حدثني صاحب لي أن رجلاً من أهل الأرياف – غرب مدينة بريدة – من بلاد القصيم ، في الجزيرة العربية عاش في منتصف القرن الثالث عشر يدعى : (علي المهوس) وكان شاباً يافعاً يعمل هو وأخواته عند والده في المزرعة المتواضعة، وكانت قليلة الريع، لا يفي منتوجها بالحاجات فضلاً عن تسديد الدين المتراكم على والده.

قال: حدثني المهوس قائلاً : ضاق صدري من الوضع المتردي لنا في هذه المزرعة والتي لا أرى وبيص أملٍ في أنَّ كدَّنا المضني سيكون له مردود، وكنت أسمع في المجالس ذهاب بعض الرجال إلى الكويت، وحصولهم على فرص للعمل، وأسمع أن فلاناً ذهب وفلاناً وفلاناً، فإذا طواني الليل حدثتُ نفسي بالذهاب هناك لعلّي أغني نفسي وأهلي بتوفيق من الله، لكني مستبعد موافقة والدي، لأني عضده الأيمن، وكنت وحيده من الذكور، لكني جمعت نفسي وأتيته على استحياء فطلبت منه الإذن لي في السفر، فضحك ثم قال: يا ولدي أنت صغير، عمرك (١٤) سنة والأعمال هناك شاقة

لا يطيقها إلا ذوو القوة من الرجال، فقلت بكل لهف: يا والدي الأرزاق بيد الله وأنا واثق بأن الله سيوفقني، ثم قبَّلتُ رأسه وأنفه، وألححتُ عليه يوماً بعد يوم، فوافق، ويبدو أنه على مضض، ثم ذهب إلى أحد رؤساء عقيلات الغادين والرائحين بين الكويت والعراق وتلك الجهات فطلب منه أن أصحبهم إلى الكويت فقال: ليس عندنا ما نحمله عليه، فالإبل محملة بالبضائع، فإن كان سيسير على قدميه كسائر الرفاق فابعثه لنا بعد صلاة العشاء ليلة السبت القادم.

جاء والدي فأخبرني بذلك وكلمني كلاماً يوهن من عزيمتي، فقلت: يا أبي إن كنت موافقاً فسأتوكل على الله، فقال شأنك بيدك.

وقبل مسير الرحلة بيومين دعاني والدي واختصر بي ، ثم ذرفت عيناه بالدموع وقال: يا بني ستسافر ولا أدري أترجع حياً أو ترجع فلا تلقاني، ولكن حقك عليَّ أن أبذل لك النصيحة، وحقي عليك قبولها والالتزام بها فقلت: هات يا أبي سمعاً وطاعة ، أسأل الله قبول الرشد، ثم وعظني وأوصاني بوصايا كثيرة فكان مما قال: يا بني لتكن تقوى الله زادك في السر والعلن، فمن اتقى الله جعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيقٍ مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب ، يا بني الصلاة الصلاة في وقتها، ولا تدع الوتر؛ واعلم بأنه لن ينفعك إلا الله فعليك بالصدق معه واحفظ جوارحك عن الحرام

يحفظك الله من الشرور، ولا تغفل عن السلاح الحارس- بإذن الله – أتدري ما هو يا بني؟ قلت: لا . قال : ورد الليل والنهار ، ومن قابلك بإساءة فقابله بإحسان ، واعلم يا بني أن السفر قطعة من نار فلا بد من الصبر التام، فإذا جعتَ فاعلم أن جميع رفاقك جياع، وإذا عطشت فكلهم عطشى، وإذا تعبتَ فكلهم متعبون فلا تضجر، الله الله في احترام وخدمة رفقتك لتنال الأجر من الله ثم رضاهم، وعليك بالأمانة وصدق الحديث، وإذا نزلتم في مكان وأردت قضاءَ الحاجة فانظر إلى الريح ثم استدبرها واستدبر رفقتك حتى لا يتأذوا برائحة غائطك، وإذا أردت أن تنام فاجعل نعليك وما معك من نقود تحت رأسك. واعلم يا بني أنك ستقدم على قوم تختلف عاداتهم عن عاداتك وطبائعهم عن طبائعك، فلا تسخر من أحد، واحذر المزاح مع من لا تعرف ولا تثق به، ودارهم ما دمت في دارهم، وعليك بالوفاء، ولا تستبدَّ برأيك، فإذا طرأ عليك أمرٌ فاستخر ربك واستشر من تثق بعقله وسداد رأيه، وعليك باحترام رأي رفيقك، وإن كنت ترى خلافه إذا كان لا يخالف شرع ربك، واحذر ثم احذر من لصوص الإيمان والأخلاق (قرناء السوء) ، ثم دعا لي بالتوفيق وحسن العاقبة.

ولما انتهى قبَّلتُ رأسه، وقلت: يا أبت أبشر فستسمع عني كل ما يسرك، وسأكون عند حسن ظنك بي – إن شاء الله – وبعد يومين ودعتُ أهلي وتجاوبنا دموع ألم الفراق، ثم سارت القافلة

مواصلة الخطى فلا استراحة إلا بعد هزيع من الليل، وبعد مضي عشرين يوماً حططنا رحالنا في وسط الكويت بعد تعب وعناء شديدين، ثم دلوني على رفقة كانوا هناك من أهل نجد فسلمتُ عليهم وعرفتهم على نفسي وطلبت منهم أن أقيم معهم، فما كان منهم إلا أن لبوا ورحبوا . وفي الصباح الباكر انطلقت معهم إلى سوق العمل (وكان عبارة عن رحبة يقف فيها الرجال فيأتي إليهم أصحاب العمل فيختارون من يناسب أعمالهم) فوقفت حتى أذن الظهر وكنت أعرضُ نفسي لأصحاب العمل وأعدهم بالجد والاجتهاد، لكنهم يُعرضون عني وكان هذا ديدني أكثر من عشرين يوماً فلم أفلح بعمل، وذلك نظراً لصغر جسمي، فقد كانوا يختارون الرجال الأقوياء، وأمر آخر: كلٌ يأتي فيختار العامل الذي يعرفه من قبل، فضاق صدري وحزنتُ، وكنت أصلي الظهر خلال هذه المدة في مسجد قريب من السوق، ولما أراد الله لي الفرج سألني إمام المسجد قائلاً أراك تصلي معنا منذ أيام هل أنت تعمل ها هنا؟ فما كان مني إلا أن اغرورقت عيني بالدموع، فقال مالك؟ فقلت رجل غريب، فقطع الحديث ثم قال تفضّل معنا يكون خيراً إن شاء الله، فدخلت معه فرحب بي وغداني ثم قال من أين أنت يا ولدي ؟ وما قصتك؟ فقصصت عليه قصتي بالتمام، وعيناي تذرفان ثم قال: أبشر يا بُني بالفرج والرزق، فرزقك ينتظرك، ثم سلاّني بكلامٍ جميل، وكأنّه بتلك الكلمات يكفكف دمعي، فانشرح صدري

واطمأنيتُ لـه، فقـال استرح يـا ولـدي هاهنـا إلى العصر وسيكون خيراً.

وبعد صلاة العصر دعاني إلى منزله مرة أخرى ثم قال: ماذا كنت تعمل عند أهلك في نجد؟ فقلت أعمل في النخل والمزرعة، فقال: تجيد غير هذا؟ فقلت: لا. فقال إذن لا مقام لك في الكويت انطلق يا بني إلى العراق، لأن فيها مزارع وستجد هناك عملاً يناسبك- إن شاء الله - فقلت مع منْ أسافر؟ فقال: الطريق واضح ومطروق: يومان وأنت في البصرة – إن شاء الله – فلمّا كان فجر اليوم التالي ودّعت أصحابي وأخبرتهم وجهتي وانطلقت ليس معي إلا سقاء صغير وجراب فيه تمر، وبعد يومين وإذا أنا في البصرة فخرجت إلى أريافها الشمالية وصليت العصر في مسجد ذلك الحي، وبعد الصلاة عرف أحدهم أني غريب فدعاني إلى بيته، فدخلت عنده وحياني ثم أحضر القهوة وسألني من أين أنت؟ وما الذي جاء بك إلى هذه الديار؟ فأخبرته خبري، فقال : أنا عندي مزرعة لكني أريد عاملاً مجداً، وأنت صغير السن قد يشق عليك كثرة العمل . فقلت مباشرة: يا عم جربني شهرين بدون مرتب، وبعدها إن صلحتُ لك وإلا أذهب في سبيلي. فقال: على بركة الله، فانطلق بي حتى دخلنا في ذلك البستان الكبير من النخل وأنواع الأشجار فقال: تسقي وتعمل كذا وكذا في الصباح، وبعد الظهر كذا وبعد العصر كذا ونريدك تباشر العمل قبل صلاة الفجر بساعة فقلت:

أفعل، فسكنتُ في البستان، ومن الغد نهضت قبل الفجر وباشرت العمل بجد واجتهاد وكان صاحب البستان يحضر كل يومين أو ثلاثة ليطمئن على سير العمل، فكنت أقرأ على ملامح وجهه السرور والارتياح دون أن يكلمني بشيء، وبعد مضي شهر تقريباً قال لي : أنت اليوم ولد لنا، ونحن أهلك في هذه البلاد وعملك طيب، استمر على ذلك، ومرتبك الشهري سبع جنيهات فقلت: على بركة الله، وفرحت فرحاً شديداً أن حزتُ على رضاه، واستمريت عندهم أنهض قبل صلاة الفجر بساعة أو أكثر لأسقي بعض الشجر، ثم أواصل العمل والسقي ومتابعة الزراعة حسبما رُسم لي، واستمرت الحال على ذلك، وقد رأيت من العم كل إكرام، ومعاملة حسنة وبعد شهرين أرسلت إلى والدي أبشره بأني وجدت عملاً وأني بخير، فأتاني رد الرسالة بعد ستة أشهر تقريباً مع "عقيلات"، مضت الأيام والليالي حتى أتممت أربع سنين وأشهراً فقلتُ للعم: لا أدري بعد هذه المدة الطويلة من الحي ومن الميت من أهلي، فلعلك تأذن لي بزيارتهم، فقال: أبشر، أنت وشأنك، وكنتُ أدخر عنده رواتبي خلال هذه المدة، فلم أخرم منها شيئاً ، وكان جزاه الله عني خيراً محسناً عليَّ، يكسوني ويرعاني بعطفه، وبعد أيام أعطاني نقودي فعددتُها وإذا هي ثلاثمائة جنية ثم عددتها مرة بعد مرة وأنا أكاد أطير من الفرح وبدأت أرسم المشاريع التي سأنجزها بعد وصولي إلى أهلي وما هي فرحة أهلي بي وبها بعد هذه

الغيبة الطويلة ثم قال : انتبه لا تخرج إلى نجد إلا مع أصحاب الرواحل، بينك وبين نجد قطاع طرق ومهالك وأخطار، ثم ذهبت إلى الرحبة التي يجتمع فيها أصحاب الرواحل، فسألتهم من الذي سيخرج إلى نجد هذه الأيام، فانبرى رئيس تلك المجموعة وقال: نحن سنخرج غداً أو بعد غد – إن شاء الله – فقلت بِكمْ أصحبكم إلى القصيم؟ فقال تصحبنا آكلاً شارباً آمناً والسير على أقدامك بعشر جنيهات. فقلت متعجباً الله الله عشرة عشرة!! قال نعم، فكَّرتُ ملياً وقلت العشرة أجرة شهر ونصف أكدح بها. ثم قلت: هل على الطريق موارد فقالوا: نعم لكنها متفاوتة البعد، فبدأت أسألهم عن الطريق والموارد فلم يكتموا عني شيئاً فقلت في نفسي الطريق مطروقة ولعلي أسير في الليل وأطراف النهار وأختفي في وسطه عن قطاع الطريق، فاستحسنتْ نزوة الشباب عندي هذه الفكرة، فما كان مني إلا أن أخذت جراباً فيه تمر وقربة صغيرة ثم سرت حسب وصفهم، فلما مضت عليّ ليلتان، ولما كانت الثلاثة وكنت أسير في ضحاح من نور القمر، إذا بصوت إطلاق النار نحوي وإذا بأزيز الرصاص أمامي وخلفي فناديت بأعلى صوتي استسلمتُ ، استسلمت وخارت قواي وأتاني الهم من كل جانب ، وإذا بثلاثة رجال ملثمين يقدمون نحوي مسرعين فكلمني واحد منهم فقط بصوت غليظ من أين أتيت؟ وأين تريد؟ وما الذي معك فتلعثمت وبدأت لا أعقل ما أقول، لحظة وإذا هم يسلبوني كل ما معي ولم يبق معي إلا قربة

الماء، جثوت على ركبتي وأنا أبكي بكل حسرة وألم وظننت أن قلبي يكاد ينفطر من الجزع ومرارة المصيبة واستمريت أنحب وأتمرغ على التراب طول ليلتي ولا أدري كيف بقيت حياً، فلما طلعت الشمس وإذا بي أطالع عن بعد مباني الكويت عن يساري فيممتُ وجهي نحوه وأنا لا يَرْقأ لي دمع، ولساني يلهج بالدعاء على الظلمة، وأسأله أن يأجرني في مصيبتي، ويخلف عليّ خيراً منها، وصلت الكويت بعد الظهر فاتجهت إلى أحد المساجد فرميت بنفسي فيه، وبعد فترة أذن لصلاة العصر فكنت في مؤخرة المسجد وأنا ما بين شهيق وبكاء، وكان الناس يراقبونني بين الحين والحين وأنا أحاول كتمان شهيقي ولكن هيهات، لحظات ثم أقيمت الصلاة فحاولت مرة بعد أخرى كتمان شهيقي ولكن دون جدوى، وبعد الانتهاء من الصلاة بادرني رجل ذو هيئة حسنة، سنه قرابة ستين عاماً فقال: لا بأس عليك، أحسن الله عزاءك وجبرك في مصابك... ما شأنك؟ فما كان مني إلا أن أجهشت في البكاء، ولم أستطع النطق فأمسك بيدي وذهب بي إلى بيته، ثم بدأ يطمئنني ويورد عليّ من النصوص الداعية إلى التحلي بالصبر، ثم انكب علينا أولاده الصغار والكبار، حتى النساء وقفن في الباب فزجرهم جميعاً وأخرجهم، ثم جاء بماء وطلب مني أن أشرب فشربت قليلاً ثم تقيأتُ فذهب بي إلى حوض الماء فاغتسلت وذرف على رأسي من الماء ثم رجعتُ إلى مكاني فشربتُ ماءً وأكلتُ قليلاً من الطعام ولما انتهيتُ

قال ما خبرك يا ولدي؟ فقصصت عليه حالتي من أولها إلى آخرها فبكى وبكيتُ ثم قال: عسى الله أن يكتب لك الخير، والحمد لله أنك سلمت، ولم تُصبْ بجسدك، ويا بني إذا سلم العود فالحال بإذن الله تعود، وما زال يطمئنني ويورد عليّ من النصوص من وجوب الإيمان بالقضاء والقدر وقال: أنت اليوم وغداً ضيفٌ عندنا، وبدأت أراجع نفسي وألومها على التقصير، ولماذا لم آخذ برأي من هو أكبر مني؟ فالعم محمد نصحني أن أسافر مع الرواحل وكيف أن الطمع جلب عليَّ هذه الكارثة؟ بتُّ عنده تلك الليلة وهو مجتهد في إكرامي لكن ليس لي نفس تقبل الطعام، لا أدري أنمت تلك الليلة أم لا، وفي الصباح قلت لمضيفي: هل يمكن أن أجد عملاً ها هنا في الكويت ولو بضعة أشهر ثم أسافر إلى أهلي؟ فقال: يا بني: أنت تذكر أن عمَّك الذي عملت عنده في البصرة رجل كريم يعطف عليك، قلت نعم والله ما رأيت منه إلا خيراً، قال فالرأي أن ترجع إليه وتقصَّ عليه خبرك فقلت: ليس لي وجه يواجهه، فقد أمحض لي النصيحة لكن الطمع يذهب ما جمع فقال: يا بني ليس لك حل إلا الذهاب إليه، وستجد ما يسرك – إن شاء الله – هذه نصيحتي لك، قال: فقلت النصيحة مقبولة، وقلت في نفسي لا أريد أن أقع في خطأ آخر، وهو تركُ مشورة من هو أحذق وأكبر مني، فمكثت عنده ذلك اليوم، وفي الصباح الباكر ودعته ودعوت له ثم انطلقت نحو البصرة مع الطريق الذي عهدته قبل سنوات، وبعد يومين وإذا أنا في

البصرة قبل غروب الشمس، أقبلت على منزل عمي فقابلني في السوق فقال يا علي حتى الآن لم تخرج إلى نجد؟ فما كان مني إلا أن أجهشت بالبكاء والشهيق ففوجئ وانزعج من بكائي المرُّ فأقبل عليّ مسرعاً ما بك ما بك؟ ثم عرف، وقال : أسرقت نقودك؟ قلت نعم فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم بدأت أهدي نفسي شيئاً فشيئاً فأخذني إلى منزله فقال: ما الحكاية يا علي؟ فأخبرته خبري من خلال كلامي المتقطع بالشهيق، فقال: «من عصى الكبير سقط في البئر»، و«الطمع يذهب ما جمع» ثم قال: إذاً استرح عندنا هذه الليلة وإذا أصبحنا أفلحنا – إن شاء الله – فلما كان الصباح ذهب واشترى كبشاً، ثم قال: اذبحه يا علي – وكنتُ اعتدت أن أعمل لهم هذا العمل – ثم دعا وجهاء الحي وغداهم ذلك اليوم ولما انتهت الوليمة أخبرهم قائلاً: تعلمون مقام هذا الرجل عندنا منذ سنوات وما علمت عنه إلا الخير والصلاح، فأثنى عليَّ، وقد استأذن لزيارة أهله، فأذنتُ له وأعطيته أجرته خلال هذه السنوات، وأوصيته أن يسافر مع الرواحل، لكنه استعجل وذهب وحده فتعرض له قطاع طريق فأخذوا كل ما معه، والآن هو في كربة وحسرة لا يعلم مداها إلا الله، ويطلب العون من الله ثم منكم، فمن نفّس عن أخيه كربةً من كرب الدنيا نفّس الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما دام في عون أخيه ثم أمر أحد أولاده وقال خذ السلة ومرَّ بها على الرجال، فما كان منهم إلا

أن تبرع بعضهم في الحال، وبعضهم قال سأرسل ما تجود به النفس، فلما كان بعد يومين ناداني وقال: خذ هذه النقود وتوكل على الله، ثم ذهب معي إلى رحبة الرواحل وقال: بكم تأخذون هذا الرجل معكم إلى القصيم؟ فقالوا: بعشرة جنيهات، فنقدهم إياها وودعني فدعوت الله له وشكرت صنيعه، ثم تنحيت وعددت النقود وإذا هي ثلاثمائة جنيه بالتمام، فطرت فرحاً وحمدتُ الله، ثم سرنا على بركة اللّه، وبعد يومين من مسيرنا وكنا في آخر النهار تخلّف رجل لقضاء حاجته وفي هذه الأثناء اختفت الرواحل بهضبة، وإذا بنا نسمع إطلاق النار وإذا بالرجل ينادي بأعلى صوته، فهبّت الخيالة يمنة ويسرة، ثم أطلق أحدهم النار نحو شجرات ملتف بعضها على بعض، فخرج منها ثلاثة رجال فأعلنوا مباشرة الاستسلام فتوجه إليهم الخيالة، ووقفت القافلة ثم رجع السرعان منا نحو الخيالة، وكنتُ منهم، وإذا الأصوات قد علت، ثم شدوا وثاقهم، وإذا صوت أحدهم هو الصوت الذي دق أذني قبل أيام، فناديت بأعلى صوتي هؤلاء الذين سرقوني قبل أيام، والله إنهم هم، وكنت قد قصصتُ خبري على رئيس القافلة حين سألني لما رآني متعباً شاحب اللون وقد تقرحت مدامعي من البكاء فقال رئيس القافلة: أيهم الذي سمعت صوته قبل أيام؟ فأشرتُ إلى واحد منهم، فبدأ يضربه بعصا غليظة ويقول له: أين نقود الرجل؟ فما كان منه إلا أن قال: تعال معي فانطلق معه رئيس القافلة نحو شجرة صغيرة فقال احفر ها هنا

فحفر وإذا بكيس فيه نقود فناداني وقال هل هذه نقودك يا علي؟ فأخذتها فقلت مباشرة: إي والله إنها هي فطرت من الفرح وتهللتُ، فقال رئيس القافلة: عدَّها فجلستُ ويداي ترتعدان من الفرح، وبدأت أعدها، وإذا هي بالتمام لم ينقص منها جنيه واحد، فقلت الحمد لله، الحمد لله واستقبلتُ القبلة وسجدتُ لله شكراً، ثم قال رئيس القافلة: اذهب يا علي إلى القافلة فذهبت مسرعاً وأنا أكبر الله وأحمده وأقول: صدق الله العظيم: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1] لقد كرهتُ وحزنتُ حزناً عظيماً لما جرى عليَّ، والآن أملك ضعف ما حصلته خلال المدة الطويلة، سبحان الله وبحمده، فما زلت أردد الآية: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ وأسأل الله لي المزيد من الأجر، سارت الرحلة ولا أدري ماذا حصل لأولئك اللصوص، وبعد ثلاثة وعشرين يوماً — وكأنها ساعة — نحطُّ رحالنا في قاعدة القصيم — (بريدة) ثم انطلقت إلى مزرعتنا، فلما أقبلت هالني منظرها وإذا هي أطلال، فالنخل ميت والمزرعة قفر، فذهبت إلى جارنا فحياني ورحب بي وسألته عن أهلي فقال أبوك تعب من هذه المزرعة فتركها وتحول إلى بريدة يعمل في الحرفة، وبعد استراحة قليلة قال سأذهب معك

---

(١) سورة النساء: (١٩).

لأبشر أهلك بقدومك ثم انطلق مسرعاً وإذا أبي يخرج معه ويستقلبني عند باب سور بريدة، ضميته وضمني وكلانا مجهش بالبكاء، ثم ذهب بي إلى البيت الصغير وإذا والدتي وأخواتي عند الباب سلمت عليهم وفرحوا بي فرحاً عظيماً ثم تحلقوا عليّ ذلك اليوم وأنا أحدثهم عن الرحلة بالتفصيل منذُ فارقتهم إلى اليوم الذي قدمتُ فيه، بعد الظهر ذهب أبي وبشّر أخوالي وأعمامي الذين حضروا للسلام وتهنئة الأهل بسلامة الوصول، ثم أعطيت والدي جميع النقود ثم قصّ عليَّ قصة نزوحه إلى بريدة، وأن المزرعة لم تساعده وبعد حصوله على النقود خرجنا وأتينا بعمال فأصلحنا المزرعة وبنينا فهيا بيتاً ثم خرجنا إليها وعمَّرناها، ثم اشترينا ملك جارنا وقد نزح وتركه حتى أصبحت مزرعتنا يضرب بها المثل، ثم تزوجت وحصل لنا في المزرعة رزق كثير والحمد لله أولاً وآخراً صلى الله على نبينا محمد.

القصة العاشرة

الطائــرة تحتــرق وهمـا يتشاجران

حدثني أحد الإخوة من الرياض قائلاً: لنا جيران ، اعتاد أبوهم وأمهم الكبيران في السن الذهاب إلى مكة والمكث فيها شهراً أو أكثر، ثم الرجوع إلى أولادهم والمكث عندهم مثل هذه المدة ثم العودة إلى مكة مرة أخرى وهكذا دواليك فهما قد جاوزا الستين عاماً إلا أنهما نشيطان ويخدمان أنفسهما ويقومان بما يلزمهما ، وذات مرة عزما على الذهاب إلى مكة فحجز لهما ابنهما في الطائرة، وفي مساء يوم الثلاثاء الموافق ٨/شوال/١٤٠٠هـ ذهب بهما ابنهما إلى المطار فأجلسهما في صالة الانتظار ثم ودعهما وذهب إلى عمله وكان قد بقي على إعلان الرحلة قرابة ساعة ، فاضطجع الشيخ الكبير متوسداً ثياب الإحرام، وقال لزوجته: إذا أعلنوا صعود الطائرة فأيقظيني فقالت: إن شاء الله، ثم مكثت العجوز ملياً تحادث النساء اللاتي بجوارها، ثم قالت أريد أن أذهب إلى دورة المياه فخرجت إلى دورات مسجد المطار لأنها لا تحسن استخدام الدورات الداخلية، والتي هُيئت على الطراز الأفرنجي ويبدو أنها أطالت المكث، ولما رجعت وجدت الناس من حولها قد ذهبوا فأيقظت زوجها بسرعة وقالت وهي تناديه: يا أبا محمد ذهب الناس

وتركونا، هبَّ الشيخ مستعجلاً فأخذ أغراضه ثم ذهب نحو البوابة وإذا بالموظف يمنعه من التجاوز قائلاً الطيارة قد أقلعت يا عم أين كنت؟ انتظر الرحلة القادمة بعد ثلاث ساعات فما كان من الشيخ الكبير إلا أن التفت إلى العجوز وصبَّ جامَ غضبه عليها، يتكلم عليها بشدة وبصوت مرتفع ويزجرها قائلاً: كيف فَوَّتِي علينا الطائرة؟ أين كنت؟ فجاء أحد الموظفين مسرعاً وقال: يا عم تعال استرح ها هنا وإن شاء الله تتسمح الأمور، لكن الشيخ استشاط غضباً وأرغى وأزبد، والعجوز تحاول الاعتذار لكن دون جدوى، فهو مستمر بتكرير العتاب واللوم وكيف وكيف وفي خضم هذا العتاب المتزايد من الشيخ وإذا بحالة الطوارئ تُعلن في المطار، فالطائرة أُصيبت بعطب في أحد المحركات، ثم تطور العطب فأصبح حريقاً، اتصل قائد الطائرة[1] بمركز القيادة في المطار يطلب السماح له بالهبوط الاضطراري فقيل له تريث المدرج مشغول فما كان من الكابتن بعدما شاهد الحريق قد ازداد حجمه إلا أن هبط في المدرج، وإذا بلهيب النيران من كل ناحية، هب رجال الدفاع المدني والطواري في المطار لنجدة الركاب الذين يزيد عددهم عن ثلاثمائة راكب لكن دن جدوى، مما سبب حصول الكارثة العظيمة ووفاة جميع من فيها ولم يخرجوا إلا وقد صهرتهم النار عن

---

(١) وهو محمد الخويطر رحمه الله .

آخـرهم ممـا جعـل الـكـثير منهم لم تعـرف ملامحـه للتعـرف عليـه ‑رحمة الله على مؤمنهم‑ والشيخ في وسط الصالة مرتفع صوته في لـوم العجـوز، تخـابر النـاس بالـكـارثـة فهرعـوا مـن كـل جانـب نحـو المطـار زرافـات ووحـدانا، كـل يريـد التأكـد مـن سـلامة أقربائـه، وكـلٌّ يظـن أن طـائرة رحلـة قريبـه هـي الـتي أصـيبت، حتـى أعلـن المسؤولون في المطار عن الـكارثة وتفاصيلها وإذا بالشيخ يضمه ولـده وهـو: يقـول يـا أبـتي الحمـد لله علـى الـسلامة أيـن والـدتي؟ فتـنفس الـشيخ الـصعداء وقـال: الحمـد لله الـذي نجانـا، والله يـا بُـني لقـد كرهت فوات الطائرة وحزنـت كـثيراً، ولم يـسبق لـي أن لمتُ أمـك على شيء كلومي لها اليوم، لـكـن أسـتغفر الله وأتوب إليـه وأشـهد بـالله أن مـا أخطـأك لم يكـن ليـصيبك، ومـا أصـابك لم يكـن ليخطئك، وأن كل شيء عند ربنا بمقدار، فما شاء الله كان، ومـا لم يشأ لم يكن، وصدق الله: ﴿ **فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا** ﴾[1].

ومـن المفارقـات العجيبـة في حـادث هـذه الطـائرة ‑والـتي تعطـي المسلم العظـة وعمـق الإيمـان بالقـضاء والقـدر‑ مـا نـشرته جريـدة المدينـة (الـسعودية) مـن أن أحـد مـوظفي الخطـوط الـسعودية والمدعو (سامي حسنين) والذي يعمل مساعد طيار كان في ذلك اليوم مجازاً

---

(١) سورة النساء: (١٩).

فذهب من بيته إلى المطار ومعه ولده وذلك لإحضار بعض أوراق تخصه ففوجئ بأن أحد زملائه والذي كان مقرراً له أن يتولى مهمة مساعد الطيار على الرحلة المنكوبة قد حدث له أمر طارئ منعه من القيام بالرحلة، فتطوَّع (سامي) للقيام بالرحلة بدلاً عنه، ثم رجع إلى بيته مسرعاً لارتداء ملابس العمل وإعادة ولده، وبالفعل تمَّ له ما أراد، وخرج من منزله مسرعاً بعد أن ودع أسرته، فكان الوداع الأخير[1] وصدق الله العظيم ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

---

(١) جريدة المدينة يوم الخميس الموافق ١١/شوال/ ١٤٠٠هـ في عددها (٤٩٨٩).

(٢) سورة لقمان : (٣٤).

القصة الحادية عشـرة

الصبي الأعمى المحتقر يصبح عالماً كبيراً محترماً

توافق الرواة في نقل القصة من أقرانه وأصحاب أبيه، ومجمل القصة أنه قبل ظهور حقن تحصين الأجسام من الأمراض المعدية، كان مرض الجدري من بين الأمراض التي تغشى الناس، وقد يستسحر الفناء فيهم بإرادة الحي القيوم.

وكان من بين من أصابهم هذا الوباء، أولاد رجل من بلاد القصيم، وذلك في العقد الرابع من القرن الرابع عشر للهجرة وكان من بين الأولاد غلام له من العمر ست سنوات نتج من هذا المرض ظهور خدوش في الوجه، وفقدان بصره بالكلية، كان هذا الغلام يتقلب بين ظهراني إخوته وأخواته الذين يعملون في المزرعة فهو يجري خلفهم يريد اللحاق بهم، فيتعثّر هنا وهناك، ويحصل له من الجروح ما يحصل، لكنه ينهض مسرعاً نحو أصواتهم فيصطدم بتلك النخلة أو الشجرة، وكان إخوته يضحكون على عثراته ويلقبونه (عُمَيْ، عُمَيْ) لا يبالون به ولا يسألون عنه إن فقد، ولا يؤبه به إن حضر، بل في غيبة والديه يجعله إخوته ألعوبةً لهم من أجل الضحك على مشيته وعثراته حين يرسلونه هنا وهناك، فهو خفيف

الحركة، وعنده عزم وجلد، وقد رزقه الله ذكاءً وهمة فهو يحاول القيام بكل شيء، ويريد أن يفعل أكثر مما يفعله المبصرون، كان أبوه فقيراً جداً، يرى أن هذا الأعمى عالة عليه، لأنه لا يستفيد منه كإخوته، وذات يوم قصد صديق لوالده غاب عنه منذ سنوات، فشكى إليه حال هذا الغلام الأعمى، وأنه لا يستفيد منه، بل إنهم منشغلون في ملاحقته ورعايته مما سبب تعطيل بعض أعمالهم، فأشار الصديق عليه أن يرسله إلى الرياض حتى يطعم من مضيفة ابن سعود[1]، ولا يُعدم من وجود من يعطف عليه هناك.

استحسن الوالد هذه الفكرة، فلما قدم جمَّال على ظهر جمله خشب يريد بيعها في الرياض، قال له الأب: أريد أن أبعث معك هذا الغلام، تذهب به إلى الرياض وأعطيك ريالين فرنسي بشرط أن تضعه في الجامع، وتدله على المضيفة وبئر المسجد ليشرب ويتوضأ منه وتوصي عليه من يُحسن به.

حدّث هذا الغلام بقصته بعدما كبر قائلاً: دعاني والدي – رحمه الله – وكان عمري قرابة ثلاث عشرة سنة فقال: يا بني الرياض فيه حلق العلم وفيه مضيفة يحصل لك العشاء كل يوم، وفيه ،وفيه،... وسوف ترتاح هناك – إن شاء الله – وسوف نبعثك

---

(١) لما استتب الأمن في الجزيرة العربية على يد الملك عبدالعزيز – رحمه الله –أقام ضيافة كبيرة في الرياض لإطعام الفقراء والغرباء وكانت معروفة في ذلك الزمن.

مع هذا الرجل، ويُعرفك بكل ما تريد، قال: فبكيتُ بكاءً شديداً وقلت: أمثلي يستغني عن أهله؟ كيف أفارق والدتي وإخواني وما ألفت، وكيف أصرِّف نفسي في بلدة غريبة عليّ، فأنا متعبٌ وأنا عند أهلي فكيف إذا كنتُ عند غيرهم!! ، وأنا لا أريد ذلك ، قال فعزم عليَّ والدي، وألحَّ عليَّ، ثم أعطاني ثيابي، وقال توكل على الله اذهب فستجد خيراً إن شاء الله، ارتفع صوتي بالبكاء وإخوتي صامتون، ثم أمسك صاحب الجمل بيدي، ووعدني بالخير والراحة التامة، ومشيتُ وأنا أبكي ثم أمرني أن أمسك طرف خشبة خلف الجمل فكان يسير أمام الجمل وأنا خلفه وقد علا صوتي بالبكاء، وأتحسر على فراق أهلي، ومضت تسعة أيام وإذا نحن في وسط الرياض، ثم وضعني في الجامع ودلني على البئر والضيافة لكن ما زلتُ كارهاً متحسراً أبكي بين الحين والحين، وأقول في نفسي كيف أعيش في بلد لا أعرف فيها شيئاً، لا يعرفني فيها أحد وتمنيتُ لو كنت مبصراً لهمتُ على وجهي في الصحراء، لكن من رحمة الله أن قيّض لي أناساً في الجامع، عطفوا عليّ فأخذوني إلى الشيخ عبدالرحمن القاسم – رحمه الله – وقالوا هذا رجل غريب، فأتى الشيخ، وسألني عن اسمي ولقبي، ومن أي البلاد؟ ثم أجلسني بجواره، وأنا أكفكف دمعي فقال: يا بني ما شأنك؟ فأخبرته خبري فقال: خيراً – إن شاء الله – لعل الله أن ينفعك وينفع بك. أنت ولدنا، ونحن أهلك وسوف ترى ما يسرك عندنا، وسوف نضمك إلى

الطلبة الذين يطلبون العلم ونجعل لك سكناً وفيه طعام، وإخوة لك في الله يقومون برعايتك.

فقلت: جزاكم الله خيراً، لا أريد ذلك، أريد أن تحسنوا عليّ فترجعوني إلى أهلي مع أحد القافلين إلى القصيم، فقال: يا بني جرّب ما عندنا فإن طاب لك المقام وإلا ستصل إلى أهلك - إن شاء الله - ثم نادى رجلاً فقال له ضمَّ هذا الغلام إلى فلان وفلان وقل لهم استوصوا به خيراً، فأمسك بيدي وذهب بي إلى أخوين فاضلين فرحبا بي، وجلست عندهما وأخبرتهما بحالي، وكرهي الشديد لهذا المقام، ومفارقة أهلي فما كان منهما إلا أن حدثاني بحديث تسلية ووعدا بالخير وطلب العلم فاطمأننتُ لهما وأحسنا بي - جزاهم الله عني أحسن الجزاء - لكني ما زلت محزوناً كارهاً، أبكي بين الحين والحين على فراق أهلي.

كان مسكن الأخوين غرفة قرب المسجد فمكثتُ عندهما، أذهب وأجيء معهما نذهب لصلاة الفجر، ثم نجلس في المسجد في حلقة القرآن حتى يتعالى النهار، فقد كان الشيخ يحفظنا ثم بعد ذلك نعود إلى الغرفة فنستريح ساعة ونطعم ما تيسر، ثم نعود إلى الحلقة مرة أخرى نمكث إلى الظهر ثم نستريح للقيلولة ثم نعود للحلقة بعد العصر وهكذا استمرينا فبدأتُ أطمئن شيئاً فشيئاً كل يوم أفضل من الذي قبله، وشرح الله صدري لحفظ القرآن خاصة بعد تشجيع الشيخ - رحمه الله - واهتمامه بي ورأيت أني أتقدم في

الحفظ يوماً بعد يوم، والشيخ يشحذ همم الطلاب ويقول: لماذا لا تكونون مثل حمود؟ انظروا إلى جده وحرصه، وهو رجل كفيف! ، فكنت أنشط بهذا الكلام مع ما يحصل بيني وبين الزملاء من منافسة، ولم يمض عليّ شهر ونصف إلا وقد رزقني الله الطمأنينة وراحة النفس حتى أصبحت أتلذذ بهذه الحياة الجديدة، ولما مضى عليّ سبعة أشهر قلت في نفسي – سبحان الله – كم فيما تكره النفس من الخير وهي عنه غافلة!! ، كيف أبكي وأحزن على الحياة البائسة عند أهلي؟ جهلٌ وفقرٌ وتعبٌ وإهمالٌ واحتقارٌ وأحس أني عالة عليهم، استمريتُ على هذا الوضع، فلم يمض عليّ عشرة أشهر إلا وأنا أحفظ القرآن كاملاً– بحمد الله – ثم عرضته على الشيخ مرتين ثم قام الشيخ معي وذهب بي إلى المشايخ الكبار، وهما الشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ عبداللطيف بن إبراهيم وعرّفهم بي ثم قال لي ستنضم في حلق العلم، ومراجعة القرآن تكون بعد صلاة الفجر يتابع لك فلان، وبعد صلاة المغرب يتابع لك فلان، فبدأت أحضر إلى حلق المشايخ وأنهل من العلم بجد واجتهاد وكانت الدروس في العقيدة، والتفسير ، والفقه وأصوله، والحديث ، وعلومه، والفرائض ، فالدروس منتظمة، كل وقت في فن من الفنون وكنتُ مع مرور الأيام تزداد طمأنينتي وأنسي وراحة بالي فقد كنتُ مغتبطاً في طلب العلم. كان والدي – رحمه الله – يسأل الذاهبين والرائحين إلى الرياض وتصله أخباري دون علمي

واستمريتُ – بحمد الله – على مواصلة العلم والتقلب في رياضه وبعد ثلاث سنوات استأذنت مشايخي في زيارة أهلي فأمروا بترتيب سفري مع صاحب جمل فركبت – بحمد الله – حتى وصلت إلى أهلي ففرحوا بي فرحاً شديداً خاصة الوالدة – رحمها الله – وسألوني عن حالي فقلت لا أظن أحداً فوق الأرض أسعد مني، ورأوا من حالي السكينة والوقار، كما رأيتُ منهم التقدير والاحترام وقدموني إماماً في الصلاة، وحدثتهم عن حالي فارتاحوا لذلك وحمدوا الله وبعد أيام استأذنتهم للسفر فألحوا عليّ بالبقاء فقبلتُ رأس والديَّ وطلبتُ منهما الإذن بالرحيل فحصل ذلك بحمد الله ثم رجعت إلى الرياض وواصلت طلبي للعلم وكنت شغوفاً في تحصيله.

حدَّث أحد أقرانه قائلاً: جدَّ واجتهد الشيخ في التحصيل حتى نال إعجاب مشايخه وأقرانه وأدرك علماً غزيراً، وكان أحب شيء إليه أن يجالسه أحد يقرأ عليه كتاباً لم يسبق أن سمعه، أو يناقشه في مسائل علمية، وكان ذا حفظ عجيب، وسرعة بديهة، ولما بلغ الثامنة عشر أمره شيخه أن يجلس لصغار الطلاب يحفظهم بعض المتون، ولما فُتحت كلية الشريعة أشار عليه بعض مشايخه الالتحاق بها فكان ضمن الدفعة الأولى التي تخرجت منها عام (١٣٧٧هـ) فعُين مدرساً في كلية الشريعة في الرياض، وفي آخر حياته انتقل إلى كلية الشريعة في القصيم وتخرَّج على يديه أفواج من طلبة العلم من القضاة والخطباء والمدرسين والمديرين وغيرهم، وقد شارك في

مواسم الحج في الفتيا والدعوة، كما اشتغل في تجارة العقار فكان سبباً في الإنفاق على أهله وإخوته ومواساة عامة أقاربه؛ أما إخوانه الذين كانوا يسخرون به لما كان طفلاً صغيراً ، فقد نالوا منه خيراً كثيراً لأن بعضهم لم يوفق للكسب وصدق الله العظيم: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1] رحم الله الشيخ رحمة واسعة.

---

(١) البقرة : (٢١٦).

القصة الثانية عشرة

حزن لعدم موافقة أخيه بالزواج يتمحض سعادة له

حدثني أحد كبار السن من بلاد القصيم قائلاً: كان لنا جار له مزرعة يعمل بها، فلما كان قرابة منتصف القرن الرابع عشر الهجري توفي – عليه رحمة الله – وقد خلَّف ثلاثة أبناء، فبقي الأولاد في المزرعة يكدحون ويحرثون، وعاشوا شركاء متعاونين فيما بينهم، فقد كانت هذه المزرعة مصدر رزقهم، ولما بلغ الأكبر عشرين سنة تقريباً تزوَّج، وبعد سنين تزوَّج أخويه، لكن الأكبر لم يُنجب له، أما الأخوان فقد رُزقوا بأولاد، وبعد مضي عشر سنوات تقريباً، تزوَّج الأكبر بأخرى طلباً للولد، وبقى معها سنين فلم تُنجبْ له، ثم تزوَّج بثالثة، فلم تُنجب له – أيضاً – فأقنع نفسه بأنه عقيم، ولم يكن في ذاك الزمان فحص ولا تحاليل مختبرية، فقال لزوجاته: الذي يظهر أني رجل عقيم، فمن شاءت أن أسرحها سراحاً جميلاً فلا حرج في نفسي، فرددن عليه الزوجات: رضينا بك بعلاً، أنت رجل كريم، حسن الأخلاق، ذو دين ومروءة.

وبعد حوالي سبع سنين من زواجه بالثالثة، قدَّر الله أن مات الأخ الأصغر، وكان له خمسة أطفال، فلما انقضت عدة الزوجة، أشار

الأكبر على أخيه الأوسط أن يتزوج زوجة أخيه، وقال له : هذه امرأة طيبة وقد عاشت معنا سنين، وأولاد أخينا نريد أن يعيشوا تحت رعايتنا وتربيتنا ، فوافق الأخ، لكن يبدو أنه وافق على مضضٍ ، فذهب الأكبر فخطبها لأخيه، فوافقت هي وأهلها ، ثم حدَّدوا يوماً للزواج وتناول طعام وليمة العرس، ودُعي الأقارب والجيران لهذه المناسبة ، وانتشر الخبر في البلدة، وكان من عادتهم في ذاك الزمان أن وليمة العرس تُقدم بعد صلاة العصر، فلمّا صلى الأخوان صلاة الظهر في يوم ميعاد الزواج، قال الأخ الأوسط لأخيه الأكبر : أنا تراجعتُ عن موافقتي بالزواج من زوجة أخي، فأنا فكرتُ وإذا عندي زوجة مرتاح إليها، وقد رزقني الله منها أولاداً ، فليس لديَّ الرغبة أبداً، ففوجئ الأخ الأكبر بهذا الكلام، فحاول إقناعه، وضرب له الأمثال ، وأورد عليه الحكايات، لكن دون جدوى ، فأسقط في يده، وحزن حزناً شديداً ، فهو الذي رتَّب الأمور، وساق المهر، وقد انتشر الخبر، واستعدَّ الناس ، ولم يبق على حضور وليمة العرس سوى ثلاث ساعات تقريباً ، فناشد أخاه وألحَّ عليه، لكن الأخ امتنع أشدَّ الامتناع حتى قال في الأخير: تزوجها أنت وضمها إليك، فأجاب الأكبر: أنت تعلم أن في عصمتي ثلاث نسوة، ثم كما تعلم أني رجل عقيم، وهذه امرأة شابة، واسترسل معه في الكلام والترجي، لكن الأخ امتنع أشدَّ الامتناع ، وكان حديثهم هذا في المسجد بعد صلاة الظهر، ثم انصرف الأخ الأوسط، وبقي

الأخ الأكبر في المسجد حيران، غارقاً في الحزن والتأسف لامتناع أخيه، ويفكر ما الحيلة الآن ، وماذا سيقول لأهل المرأة وللمرأة – أيضاً – وماذا سيتحدَّث الناس وقد علموا ، بل ودعوا إلى وليمة الزواج، وهل ستصيب أحاديثهم عين الحقيقة ، أم سيشرِّقون ويغرِّبون؟

قال محدثي– وقد حدَّثه الأخ الأكبر بتفاصيل القصة – قال: فبقيتُ في المسجد حزيناً أفكر بالمخرج، ثم قمتُ فصليت ركعتين ودعوتُ الله وبكيت، وألححت بالدعاء أن يدلني على الرشد ، وأن يخلصني من هذه الأزمة، فلما انتهيت من الصلاة، وهممتُ بالانصراف إلى البيت، وإذا أنا أسمع صوتاً من أحد جوانب المسجد يقول: يا صالح[1] تزوجها أنت فهو خير لك، فالتفت يمنة ويسرة ألتمس مصدر الصوت، فلم أر شيئاً، ثم بدأت أردد (خير لك يا صالح، خير لك يا صالح) ، فسبحان الله انشرح صدري للزواج منها فذهبتُ في الحال إلى والد الزوجة فأخبرته بالخبر، وأن أخي استخار عن الزواج فلا رغبة له به، ثم أخبرته بما حصل لي بالمسجد ، فقال: خيراً إن شاء الله ، اجلس هنا سأذهب استشير البنت، وبعد قليل رجع إليَّ وقال: لقد وافقت البنت، ونسأل الله لكم التوفيق.

قال : فتزوجتها ، ثم قدَّر الله أن حملتْ مباشرة، ثم بعد ذلك

---

(١) اسم الرجل صاحب القصة (صالح).

حملت نسائي الثلاث، فحمدت الله وفرحتُ وشكرتُ الله على نعمة الولد، وكان عمري قد ناهز الخمسين، فالحمد لله الذي أبدل حزني فرحاً وفرجاً ونعمة عظيمة.

قال محدثي: عاش حياة طيبة مع نسائه، وتوفي عن عمر تجاوز الثمانين، ورُزق من الأولاد من زوجاته الأربع سبع وعشرون ما بين ذكر وأنثى، والأمر لله من قبل ومن بعد، وصدق الله العظيم ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ ولعل حُسن نيته وإحسانه بالأيتام كان سبباً لتوفيق الله له، والله الموفق والمعين.

القصة الثالثة عشرة

حُزْن الشاب الذي شكته زوجة أبيه، ينقلب سعادة له

حدثني أحد القضاة في المحكمة العامة في المدينة النبوية قصة هذا الشاب مع زوجة أبيه ، وملخصها: قال كان هناك رجل قدم المدينة سنة (١٣٧٠هـ) تقريباً ،وبدأ يعمل بالحِرف والبيع والشراء، فحصَّل خيراً ، ولما كان في حدود سنة (١٣٩٥هـ) تزوَّج بامرأة من أهل المدينة، لكن لم تدم العشرة بينهما ، فلما حملت طلقها ، وبقي وحده في بيت مستأجر يكدح ويأوي إليه ، وبعد أشهر جاءته البشارة بمولود من زوجته المطلقة ، لكنه لم يُبدي سروراً واستبشاراً به، ولم يسأل عنه، فقط قال: سموه (عليان) ، وكان — كما يُروى— غليظاً سيء الخلق، قليل العلم، ولهذا لم يصل ابنه بشيء لا بزيارة ، ولا نفقة.

ترعرع الابن وعاش عند أخواله، أما أمه فقد تزوجت بآخر، ولما كبر الابن وميَّز، بدأ يسأل عن أبيه، وما اسمه؟ وهل هو حيٌّ أم ميت؟ فأجابه جدُّه لأمه: أبوك حي يرزق، لكنه مشغول، فقال الابن: أريد أن أراه وأسلم عليه، فقال الجد: لأحد أبنائه اذهب به، فستجد أباه في سوق الخضار، فذهب به الخال ، فوجده في السوق،

كما ذكر الجد، فسلَّم عليه، وقال هذا ابنك "عليان" يريد أن يُسلم عليك، فبكى الابن ثم رمى بنفسه في أحضان والده، لكن الأب الفض لم يبادله الشعور، بل تعامل معه بكل جفاء، ثم انشغل عنه ببيعه وشرائه، فما كان من الخال إلا أن أخذ الابن ورجع به، واستمرَّ الخال بالذهاب بالابن لزيارة أبيه في السوق كل سبعة أشهر تقريباً، حتى كبر الابن وبدأ يذهب بنفسه على قدميه، لكنه كان يتألم لأن أباه لا يفرح بقدومه ولا يحتفي به ولا يبادله الشعور، لكن الولد استمرَّ بالقيام بواجب الصلة والبر، ولما بلغ الابن عشرين سنة تقريباً، توظَّف بوظيفة صغيرة عند إحدى الشركات، ثم رغب في الزواج فخطب امرأة فوافقت، فذهب إلى أبيه يبشره ويطلب منه الإعانة أو الإقراض، فأعرض الأب عنه، ولما كررَّ له القول، قال: والله لو تريد فلساً مني فلن تظفر به، فحزن الولد لذلك الموقف، لكنه تحمّل ومضى في طريقه فاستدان فدفع مهراً للمرأة، ثم استأجر شقة صغيرة وأثَّث المنزل تأثيثاً متواضعاً جداً لقلة ذات اليد، ولما حُدِّد موعد الزواج ذهب إلى أبيه فأخبره وطلب منه حضور حفل الزواج، لكن الأب امتنع فلم يحضر. لم تأثر هذه المواقف السلبية على صلة الابن لأبيه، بل استمر بالزيارة والصلة، والأب لم يتزوج بعد زواجه الأول إلا قبل وفاته بسنة تقريباً، فلما تزوَّج أخذ الابن هدية لزوجة أبيه، وذهب إليهم في المنزل ،فسلَّم وبرَّك لهما ودفع الهدية للمرأة، وكان هذا أول مرة يدخل منزل والده المستأجر، ثم

استمَرَّ في الصلة والزيارة كل أسبوعٍ تقريباً، وبعد مضي حوالي تسعة أشهر من زواج الأب مرض الأب، وأصبح طريح الفراش، فقام الابن على تمريضه، والذهاب به إلى الأطباء هنا وهناك، وكان يعالجه على حسابه، وبعد حوالي شهرين توفي الأب في سنة (١٤١٨هـ).

حزن الابن واسترجع ودعى له بالرحمة والمغفرة، ومكثت المرأة في البيت المستأجر للحداد يقوم بخدمتها، وبعد أسبوع طلبت من الابن أن يشترك معها في فتح صندوق أبيه، فوافق الابن، فلما فتحاه وإذا به أربعون ألف ريال، فقالت: اسأل العلماء كم نصيبي وكم نصيبك، فنحن الورثة، ذهب الابن فسأل فأفادوه بأن للزوجة الثمن خمسة آلاف، والباقي له. فأخبرها فتقاسموا على هذا النحو، فلما انتهت العدَّة ذهبت المرأة إلى أهلها، وسلَّم الابن السكن لأهله، ثم تواصل مع زوجة أبيه بالزيارة والإحسان.

فلما كان ذات يومٍ استدعته وقالت: إن أباك في الأسبوع الذي توفي فيه يذكر بين الحين والحين الدراهم، ويقول: احفظوا الدراهم ونحو هذا الكلام فاستفسرتُ منه فقال: الدراهم عشرين ألفاً، فهذه الدراهم يظهر أنها عندك أو تعرف خبرها، فقال: لا والله لا أعرف عنها شيئاً. فألحَّت عليه ثم كررتْ الكلام، فقال: كما قلتُ لكِ لا أعرف عنها شيئاً ثم انصرف وبعد أيام وهو في العمل فوجئ بمراسل يدخل عليه في مكتبه ويسلمه خطاباً، فلما

قرأه، وإذا هو خطاب من المحكمة العامة في المدينة تطلب منه الحضور في تاريخ كذا ،لأن فلانة (زوجة أبيه) قد ادعت عليه ، فما كان منه إلا أن استأذن من العمل وذهب إليها مسرعاً فاستفهم منها ما القضية؟ قالت: الدراهم التي سألتك عنها هي عندك فلابد من تسليمي نصيبي وإلا فالمحكمة، حزن الشاب لهذا الاتهام حُزناً شديداً ورجع إلى العمل وهو في حالة اكتئاب وتفكير مستمر، رجع بعد الدوام وما زال مهموماً ، فهو شاب طيب ما سبق له أن دخل المحاكم، وما سيقوله الناس عنه إذا ذهب إلى المحكمة، فركبه الهم، فلما كان من الغد فكّر وقال في نفسه لعلي أعطيها ثُمن العشرين وهي ألفين وخمسمائة ريال وأنوي أنها صلة، فجمع أمره واقترض من زملائه بقية المبلغ، ثم ذهب إليها وقال: هذا ثُمن العشرين واسحبي الشكوى من المحكمة، فقالت: لا . لا آخذها إلا عند القضاء، احتمال أنها أكثر من عشرين، فقال: والله ما أعرف عنها شيئاً وهذه غرمتها لك ونويت أن تكون صلة ، فلم تقبل، فحزن حزناً شديداً وركبه الهم من كل جانب، كل ذلك حفاظاً على سمعته.

قال القاضي: فلما كان اليوم المحدد للجلسة حضرا، وإذا الشاب قد علاه الحُزن والانقباض والغضب، وظهرت عليه أمارات البراءة.

ادعت المرأة قائلة: توفي زوجي قبل أشهر وهذا الشاب ابن

زوجي أعطاني جزءاً من التركة وأطالبه في البقية، سألها القاضي قائلاً: كم بقي من التركة؟ قالت: عشرون ألف ريال ، قال القاضي: ما بينتك على هذه الدعوى؟ قالت : زوجي في الأسبوع الذي توفى فيه يذكرها، التفت القاضي إلى الشاب وسأله: أتعرف شيئاً عن ذلك؟ لم يتمالك الشاب حيث بكى ثم قال: والله لا أعرف شيئاً مما تدعيه، وأنا قلت لها ذلك وحلفتُ لها أيماناً، خلّف والدي أربعين ألفاً واقتسمتها أنا وإياها كل أخذ نصيبه، أما ما تدعيه فلا أعرف عنه شيئاً، وهي ألصق بوالدي مني، أنا لست عنده في المنزل، حيث أني مستأجر شقة وساكن فيها أنا وزوجتي.

التفت إليها القاضي: فقال لابد من إحضار بينة على دعواك، فقالت: ليس عندي إلا ما قلت لك: زوجي في الأسبوع الذي مات فيه يذكرها.

قال القاضي: لعل هذه الدراهم أودعها الزوج عند أحد البنوك، فأعطونا اسمه كاملاً، ورقم سجله المدني، وانصرفوا وإذا كان بعد أسبوعين تأتون للجلسة الثانية.

رأى القاضي أن الشاب مهموماً وحزيناً حزناً شديداً فقال له: اطمئن ولا تحزن فلعل في هذه الدعوى خير لك، فقال الشاب :أنا عليَّ ديون كثيرة بسبب الزواج ووالله لا يهمني ذلك، لكن من يتحمل مقالة الناس أني كتمت ميراثها وأنا برئ، انصرفا من عنده، فكتب القاضي إلى البنوك المعتمدة استفساراً هل يوجد

لديكم إيداع بهذا الاسم ورقم السجل، فأجابت البنوك كلها ليس لدينا اسم مقيد بهذا الاسم ورقم السجل إلا بنكاً واحداً فقد أفاد أن لديه إيداعاً بهذا الاسم ومقداره مليونين ومِئتي ألف ريال، كبَّر القاضي، وقال: سبحان الله هذا الشاب كره مرافعة زوجة أبيه ومقاضاتها إياه، لكن الأمر صار خيراً، فلما حضرا في الميعاد في الجلسة الثانية، وإذا الشاب على حاله، مكتئباً محزوناً كحالته الأولى أو أشد، فلما جلسا قال القاضي لهما: أبشرا بالخير الكثير ، وأنت يا عليان[1] في العليا، فسُريَ عن الشاب فقال: لعل يا شيخ وجدتم العشرين ألف لدى أحد البنوك، فقال القاضي: بل وَجدْنا خيراً كثيراً. ثم قال: كم نصيبك أيتها المرأة من العشرين ألفاً التي تدعينها قالت: الثمن ويساوي ألفين وخمسمائة ريال، فقال سوف نعطيك بدلاً عنها مئتين وخمسة وسبعين ألفاً. فقالت: عفواً يا شيخ لا تستهزئ بي، أنا يكفيني حقي، ويظهر لك وللناس أني صادقة في دعواي، أما الشاب فقد انبهر وصُدم حين أطلعهم القاضي على كشف الحساب، فسقط من الكرسي وأصابته رِعدة، ثم ذهبوا به إلى حوض الماء فغسَّل ثم سجد سجود الشكر. ثم حضر عند القاضي مذهولاً، يقول في نفسه هل ما ذكره القاضي حقيقة أو ضرباً من الخيال، ثم أصدر القاضي بعد استكمال الإجراءات

---

(١) اسم الشاب (عليان).

صكاً بالقسمة وأن للزوجة الثمن ويساوي مئتى ألف وخمس وسبعين ألف، وللابن مليون وتسعمائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً ، فخرج الشاب فرحاً مسروراً وهو يقبل رأس زوجة أبيه، ويردد قول الله عز وجل : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ .

القصة الرابعة عشرة

الجراد الدَّبَى يلتهم المزارع

حدثني أحد كبار السن قائلاً: أنه في عام (١٣٧٤هـ) زحفت أرْجال عظيمة كبيرة من الجراد (الدَّبى)[١] على مزارعنا الواقعة في الشمال الغربي من أرياف بلاد القصيم.

قال محدثي: لما علمنا بقدومه، وأنه متوجه نحو مزارعنا تنادينا واجتمعنا معشر الحي في القرية وتشاورنا ، وقد ظهر على وجوهنا الكآبة والحزن الشديد، فمنا المسترجع ومنا المحوقل، وما عسى أن يبقى لنا من الحصيلة بعد غشيانه مزارعنا، وكل واحد لا يمكن أن يتصور ما سوف يجري على مزرعته الذي يكدح في إصلاحها وسقيها من آخر الليل إلى بعد غروب الشمس منذ أعوام، ثم إنها المصدر الوحيد لقوته وقوت أولاده.

قال: لما اجتمعنا وطُرحت الآراء، والكل في حالة فزع أشار البعض أن نجتمع و نحضر معنا عمالاً ونحفر أخدوداً في طريقه ثم

---

(١) (الدَّبى) صغار الجراد، سُمَّي بذلك لأنه يدبُّ على الأرض فلا يترك شيئاً من الزرع والثمار يمر به إلا أكله (خزانة الأدب) (١/٤٦٤).

ندفنه، بينما أشار البعض على أن نستسلم فلا طاقة لنا بجند الله، وهذا الرأي الذي رآه الأكثر وأخيراً تواصينا على أن كل واحد يحصد البرسيم والأعلاف التي عنده ويدخرها في المنازل، أما النخيل والتي قد انتهينا من تأبيرها[١] منذ شهر فعلينا أن نجلب من الصحراء شجراً يسمّى (الجثجات) من طبيعته أنه شديد المرارة ، ثم نلفوا أعذاق النخيل منه حتى لا يطعمه الجراد، لم يمض علينا سوى ثلاثة أيام من اجتماعنا ، وإذ به ينهال علينا، وكأنه أمواج من البحر لا تدري أوله من آخره، في حينها لا تسأل عن كل واحد منا وهو يكفكف دموعه حزناً من هول ما يرى من فعل جند الله، فما هي إلا ثلاثة أيام وإذا المزرعة قاعاً صفصفاً ، حيث التهم الأخضر واليابس قال محدثي: فمكثنا أربعة عشر يوماً ونحن مكتنون في البيوت، وقد تعطلت جميع حركتنا، تقرأ في وجه كل صغير وكبير الأسى والحزن، فلما ولىَّ وإذا على الأرض طبقة سميكة من مخلفاته، فقمنا بحرثها وزراعتها، من جديد ، فسبحان من بيده الأمر، نبتت الزروع بقوة هائلة وآتت ثماراً عجيبة ففي السابق كنا نجني بعض الثمار كل أربعة أو خمسة أيام، وإذا بنا نجني ثماراً كثيرة يومياً، وفي كل يوم لنا جَلَبٌ إلى السوق، وأما النخيل فلا تسأل عن صلاحه بعد ذلك، فقد حصلنا من الدخل تلك السنة ثلاثة

(١) التَّأْبير: هو تلقيح النخل، وذلك بأخذ ثمر الفُحّال ووضعه في ثمر النخلة.

أضعاف ما اعتدنا تحصيله كل سنة ، وذلك بيسر وسهولة ، فسبحان من له الأمر من قبل ومن بعد ، وصدق الله العظيم ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1].

---

(١) سورة النساء : (١٩).

القصة الخامسة عشرة

دخل السجن وهو كافر وخرج وهو مغتبط بإسلامه

حــدثني أحــد المــسؤولين في أحــد الــسجون قــائلاً : في عــام (١٤١٨هـ) دخل السجن رجل هندوسي من الجالية الهندية فما كان منه إلا أن انزوى في ناحية من السجن وخيَّم عليه الحزن والضيق، يبكـي أحيانـاً ويطيـل الـتفكير أحيانـاً، حاولنـا مـراراً أن ينـدرج ويخالط السجناء، خاصة أبناء جنسه الهنود، لكن دون جدوى، فهو في حالة اكتئاب، حتى الأكل لا يطعم إلا وجبة واحدة، تبيّن لنا أن الرجل ذو فطنة، ويجيد اللغة العربية بطلاقة ومضت الأيام والرجل يزداد حزنه واكتئابه وظهرت علامات النحالة على جسمه مما اضطرنا دعوة الطبيب النفساني وجلس معه جلسات، وحاول أن يصل إلى نتيجة لكن لم يكن شيء من ذلك، ثم صرف له بعض المهدئات، لكنه امتنع عن تناولها. قال محدثي: مضت بضعة أيام وهو على هذه الحال، وفي أحد الأيام أُدخل السجن رجل من جهينة بسبب دين تراكم عليه، لكنه كان على درجة عالية من الأخلاق وطيب المعشر، وحسن التعامل، تعلوه السكينة والوقار، وتبيَّن لنا فيما بعد أنه متعلم ولديه ثقافة عالية، يحب القراءة والمحاورة وكان له أثر طيب على عموم السجناء لكن الذي استفاد منه استفادة

عظيمة ذاك الرجل الهندي، الذي أعجبه حسن تواضعه وسمته وأخلاقه العالية التي تميَّز بها، مما جعله يلجأ إليه ويتعلق به ويبثُ إليه شكواه، وكان الرجل الجهني ينصت إليه ويتعامل معه بالحسنى ويطمئنه بأن العاقبة ستكون خيراً – إن شاء الله – عند ذلك ارتاح الرجل الهندي وبدأ يطمئن شيئاً فشيئاً، والرجل الجهني يمازحه ويداعبه، ويحاوره محاورة هادئة ومؤدبة، كل ذلك طمعاً في إسلامه، فما هي إلا أيام وإذا بحزنه يتضاءل شيئاً فشيئاً، مضت الأيام والرجل الهندي يزداد تعلقاً يوماً بعد يومٍ بالرجل الفاضل حتى ملك حبه جميع مشاعره، والرجل يزداد تبسطاً له، ويجيب على أسئلته الكثيرة، واكتشف الجهني أن الرجل الهندي ذكي مرتب الأفكار يحب الحوار والمناقشة، فبدأ يُنظم في ذهنه كل يوم موضوعاً يجعله مادةً للحوار، وفي النهاية يستنتج الرجل الهندي بنفسه خطأ معتقده، ويقف حائراً متسائلاً بكل اشتياق وتطلع لمعرفة الحق ثم ينقله عن طريق الحوار إلى موضوع آخر يستنتج من خلاله معرفة الحق بنفسه، مضى قرابة خمسة وعشرين يوماً والحوار مستمر بينهما في مواضيع شتى، وفي إحدى جلسات الحوار وإذا بالرجل الهندي تذرف عيناه ثم يقف قائماً ويبكي ويقرُّ بألوهية الواحد الأحد الصمد، وينطق بالشهادتين بأعلى صوته ويكرر الشهادتين ثم يقول (أستغفر الله، أستغفر الله) واحسرتاه على عمرٍ مضى في التيه والضلال، فوجئ بالنزلاء وقد اجتمعوا ليروا المشهد

المفزع، وهم يقولون للجهني: ماذا فعلت به؟ ما الذي حصل له ؟ ، هل فيه مس من الجن؟ قال الجهني: بل الإيمان دبّ في قلبه والحمد لله الذي هداه للإسلام ولم يجعله حطباً لجهنم قوموا فحيّوه فهو الآن أخوكم في الإسلام، قام مجموعة من السجناء فصافحوه وهنأوه بالإسلام، ثم طلب الرجل الفاضل من مدير السجن أن تُعمل له مأدبة عشاء تكريماً له على حسابه، فحصل ذلك في اليوم التالي، وبدأ يسأل عن أحكام الإسلام بلهف، خاصة الصلاة، وطلب بعض الكتيبات لمعرفة الإسلام وأحضرت له ، فكان يقرأ ويسأل والرجل الجهني يجيبه، ويبين له مزايا الإسلام وحكم تشريعاته، كان يتحسر ويسأل كثيراً لماذا بعض المسلمين لديهم انفصام بين ما يعتقدونه من تعاليم الإسلام وبين واقع حياتهم؟ ويجيبه الجهني قائلاً المسلمون في الإسلام ثلاثة أقسام: قسم متمسكون بالإسلام حق التمسك لأن الإيمان وصل إلى سويداء قلوبهم، فهؤلاء عرفوا حقاً لماذا خلقوا؟ موقنون بما سوف يقدمون عليه بعد نهاية حياتهم، فهم سابقون في الخيرات، وقسم اقتصروا على الواجبات فقط، وأهملوا النوافل وهؤلاء مقتصدون ويخشى عليهم من التدني ونقصان رصيدهم الإيماني، وقسم مسرفون على أنفسهم ضعاف إيمان ولذا فهم منغمسون في لجج المحرمات على اختلاف مراتبهم، وهؤلاء يخشى عليهم من الزيغ والانحطاط في دركات الشقاء إن لم يتداركهم الله بعفوه ومغفرته، ويتابع الجهني حواره مع الرجل

الهندي قائلاً: اعلم يا أخي أن هؤلاء الأقسام الثلاثة التي ذكرتها لك هم بالنسبة للإسلام كمثل عامة الناس بالنسبة للصحة والعافية فمن الناس من سلم من جميع الأمراض، ولذا يتمتع بصحة وافرة ونشاط تام ولديه همة عالية فهو يقوم بأيّ عمل فيه مصلحة فهو نافع لنفسه ومتعدٍ نفعه إلى غيره (فهذا سابق) ، ومن الناس من سلم جسمه من المرض وهو قائم بنفع نفسه لكن ليس لديه الاستعداد أن يتعدى نفعه للآخرين فهذا (مقتصد) ، ومن الناس من هو مريض على اختلاف نسبة المرض، فمنهم من مرضه بسيط وقد لا يشعر بأنه مريض ومنهم من هو مريض ويشعر بذلك لكن يسوف بالعلاج، ومنهم من مرضه عميق ومخوف فهو مهدد بالهلاك في أي لحظة، ومنهم من مرضه مزمن ومنهم من مرضه طارئ... ومنهم، ومنهم .... ، استمرَّت الأيام، والرجل الهندي يتعلم بهمة عالية على يد الجهني فقد تعلم قصار السور وتفسيرها وبعض الأحكام، وإذا استيقض الجهني وإذا هو قد كتب عدة أسئلة، ثم يباشره بالسؤال ، وبعد شهر تقريباً من إسلامه جاء قرار إخراجه من السجن فأبى الخروج وطلب من إدارة السجن المكث حتى خروج الجهني!!.

تعجبنا كثيراً فهذه أول حالة تمر علينا ، يطلبُ السجين تمديد إقامته في السجن فتحققت إدارة السجن من هذا الطلب ومبرره فوقفوا على الحقيقة، وهي تعلق هذا الهندي بالرجل الفاضل والاستفادة منه، ففي كل يوم يزداد إيماناً وتعلماً لأحكام الإسلام،

لكنه أُخرج بعد أيام بالقوة وهو فرح مغتبط يلهج بالحمد والثناء لله أن منّ عليه بالإسلام، وكان يقول : سبحان من بدّل حزني في أول أيام سجني إلى فرح وابتهاج بنعمة الإسلام، والحمد لله الذي هيأ لي هذا السجن لأخرج بأكبر نعمة تفضل الله بها على من شاء من خلقه، وصدق الله ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

---

(١) سورة النساء : (١٩).

القصة السادسة عشرة

حزن لاختطاف الطائرة

كنت في مجلس فتحدَّث أحد الحاضرين عن قصة قصة رجلٍ التقى به من أهل الكويت، وهو أنه كان يعاني من مرض في الجهاز الهضمي منذ سنين، وسعى للعلاج في بلده وفي بعض البلاد العربية لكن دون جدوى، ثم ذُكِر له مستشفى في بريطانيا فسافر إليه في آخر سنة (١٣٩٦هـ) ومكث هناك قرابة أربعين يوماً، ثم صارحه الأطباء بعدم الوصول إلى تشخيص المرض، فحجز للسفر راجعاً إلى بلاده في طائرة تابعة للخطوط البريطانية، وما أن أقلعت الطائرة، واستقرَّ ارتفاعها إلا وتعلن عصابة مسلحة اختطاف الطائرة، ومطالبين القائد بالتوجه نحو ألمانيا والهبوط في مطار (برلين). قال الرجل نقلاً عن صاحب القصة: فحصل لنا معشر الركاب ارتباك وحزن شديد وغثيان، وركبنا الهم من كل جانب، فمنَّا الباكي ومنَّا المحوقل ومنَّا الداعي، ومنا من أُلجم بالصمت المطبق... هبطت الطائرة في مطار برلين، فعلا الجميع الصمت والخوف الشديد، وبدأ الذين يجيدون اللغة الإنجليزية يتصنتون للمكالمات الهاتفية بين قيادة المطار والخاطفين، فمكثنا ثمان ساعات تقريباً، ثم سمح الخاطفون بتوصيل وجبة عشاء إلى الركاب مقدمة من المطار، ثم

مكثنا يومين ونحن على هذه الحال لا يسمحون إلا بتوصل وجبات فقط ؛ خلال هذه المدة زاد مرضي ومعاناتي وكنت أتقيأ بين الحين والحين وساءت حالتي جداً ، وفي صبيحة اليوم الثالث وافق الخاطفون بإنزال الركاب فكان ممن شارك لإجراء إخراج المحتجزين فريق طبي في المطار فحُملتُ في الناقلة إلى غرفة الأطباء وكنت متعباً للغاية وكان يرافقني ابني ويحمل الحقائب وفيها أوراق التحاليل والكشف الطبي الذي عملته في بريطانيا فأخرجها ثم عرضها عليهم وبعد ساعة تقريباً من المداولة بينهم قالوا للمترجم فخاطب ابني قائلاً: ينصحك الأطباء أن تعرض والدك على الدكتور فلان في مستشفى كذا فلديه جدارة وتخصص، فكلمني ابني بذلك فقلت خيراً –إن شاء الله- فسعى ابني في أوراق إقامتنا وبعد يومين سُمح لنا بالإقامة وذهبنا إلى المستشفى، وطلبنا الطبيب المذكور وعرضنا عليه التحاليل، فقال عن طريق المترجم سوف أجري تحاليل خاصة بي، وعليك المكث والتريث فمكثنا عدَّة أيام وإذا هو يشخص المرض ويشرح لنا المترجم، وأنه يلزم عملية جراحية فوافقت على ذلك وتَّمت العملية بنجاح واستأصل أوراماً كانت في الأمعاء الدقيقة، وبعد عشرين يوماً طبتُ ولله الحمد وارتفع عني كل ما كنت أجد، ثم عدت إلى بلادي سالماً معافى ولله الفضل

والمنة وصدق الله العظيم: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة النساء : (١٩).

(٢) سورة البقرة: (٢١٦).

القصة السابعة عشرة

الإجبار على تخلية المكان في مشعر منى[١]

ساق الشيخ عبدالعزيز الجليل في كتابه القيم (وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم) هذه القصة قائلاً: في حج عام (١٣٩٥هـ) حصل حريق منى الكبير في يوم النحر، وقد كتب الله لي الحج في تلك السنة مع بعض الإخوان الذين أحسبهم على الخير، وقد وصلنا إلى منى في الليل في أول عشر ذي الحجة.

فلما أردنا نصب خيامنا جاءنا رجال الأمن ومنعونا من المكان بحجة أنه يتبع الإمارة، وحصل أخذ ورد معهم، تركونا بعد ذلك ننام على أن نرحل في الصباح إلى مكان آخر، وأشاروا لنا بموقع الربوة في منى.

فلما أصبحنا تَّمت محاولة أخرى معهم لكي نبقى فلم يجد معهم الأمر شيئاً ؛ فذهبنا من مكاننا هذا ونحن كارهون مغتاظون، ثم يسر الله لنا مكاناً مناسباً في ربوة منى، فنصبنا الخيام وعوضنا الله به خيراً. فلما جاء يوم النحر– وأظن الوقت

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (٦٢/٢) ط الثالثة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

كان بعد الظهر – بدأ الحريق الكبير الذي لم تشهد منى مثله، واستمرَّ إطفاؤه عدة ساعات، وقد أتى على مساحات كبيرة من الخيام، ودُمّرت سيارات، ونجم عن هذا الحريق ضحايا.

وكان من أشد المناطق تأثراً بهذا الحريق تلك المنطقة التي نزلنا فيها ليلة وصولنا منى، والتي نافحنا في عدم تركها حتى أيسنا منها، فرحلنا عنها ونحن كارهون، وعندما مررنا عليها بعد إخماد الحريق رأينا السيارات المحترقة والخيام أثراً بعد عين؛ فحمدنا الله عز وجل أن لم نكن بقينا في هذا المكان ، وصدق الله العظيم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [(١)]، وصدق الله العظيم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [(٢)].

---

(١) سورة النور: (١١).

(٢) سورة البقرة: (٢١٦).

القصة الثامنة عشرة

حزن والدين لكون ذريتهما كلها إناث ينقشع عن حسن عاقبة

إن من موروثات الجاهلية لدى بعض الناس أنه إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، فهو يكره تعداد مولود البنات، وهذا من ضعف الإيمان من جانب، ومن ضعف العقل من جانب آخر، كيف يكره ذلك من يدعي أنه مؤمن بالقضاء؟ كيف يكره ذلك من يؤمن بأن الله حكيم عليم؟ كيف يكره ذلك من يعلم أن الأمر لله من قبل ومن بعد، وأنه مخلوق مربوب مدبر لا حيلة له في رد مشيئة الله فـ ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [1].

أما علم من كره الإناث أنهن سبب فضل لوالديهن لم يرد مثله في شأن الذكور حيث قال النبي ﷺ : **(من عال جاريتين** [2] **حتى تبلغا**

---

(١) سورة الشورى (٤٩- ٥٠).

(٢) المراد بالجاريتين الابنتين والمعنى قام عليهما بالمؤونة والإحسان والتربية.

جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم أصابعه) [(١)] وقال – عليه الصلاة والسلام – ما في حديث عائشة – رضي الله عنها –: **(من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار)** [(٢)] كيف تُكره الأنثى وهي لولا الله ثم هي ما درج على هذه الأرض إنسان؟ كيف تكره وهي الأم الحنون، والزوجة الودود، والبنت المشفقة، والأخت العطوف، والعمة والخالة الرؤوم.

الله أكبر ..!! إذا تبجح متبجح بأن الرجل صانع الحضارة ومشيدها، افتخرت المرأة بأنها صانعة صانع الحضارة ومربية له وكفى، فالمرأة الواحدة تقوم بأعمال لا يمكن أن يقوم ببعضها كل من على الأرض من الرجال، ألا وهي مكابدة الحمل والوضع وما يتبع ذلك ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ﴾ [(٣)] منْ لنا بآلة تنتج أولاداً؟ منْ لنا بآلة تفيض على أبنائنا عطفاً وحناناً؟ فتستقيم مشاعرهم، وتهدأ أحاسيسهم، ومن ثمَّ تستقيم سلوكياتهم في الحياة بإذن الله، فالذكر له فضل، والأنثى لها فضل، ولا يمكن أن تقوم الدنيا وتُعمر إلا إذا تزاوج الفضلان، فبذلك ينتج فضلٌ كبير لا تقوم الحياة إلا به، تلك سنة الله ﴿ فَلَن

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٣١) والترمذي رقم (١٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥/٥) ومسلم رقم (٢٦٢٩) والترمذي رقم (١٩١٦).

(٣) الأحقاف : (١٥).

تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا ﴾ [1].

وليس المقام هنا للرد على افتراءات المفترين على المرأة من الغربيين والمستغربين، لكن دعا إلى ما ذكرت ما سأورده من قصة ملخصها كالتالي:

حدثني أحد الزملاء قائلاً: أراد الله أن تكون ذرية خالي كلها إناث، وكانت جدتي تقول لما رُزق سبع من البنات كنا نتحاشى بعد ذلك أن نخبره عندما نعلم أن زوجته ولدت، ونحاول أن يصله الخبر من غيرنا، وذلك لما نلمح من ظهور الحزن على وجهه، وإن كان لا يبدي لنا شيئاً، وكنا إذا هنيناه بالمولدة الجديدة لا يزيد على قوله: «نرجو الله أن يدبر الخير والصلاح لنا ولإخواننا المسلمين، وأن يرضينا بما قسم لنا».

وزوجته هي الأخرى نسمع أنها تحزن أشد الحزن، وتذكر لنا النساء اللاتي يزرنها أيام نفاسها، أنها لا تملك دموعها عندما نبارك لها بالمولودة الجديدة ثم تقول:«نسأل الله الإعانة، والحمد لله على كل حال».

استمرت الحال على ذلك حتى رزقوا البنت الثانية عشر، وفي وقتها كان تزوج خمسٌ من البنات، ورزقوا أصهاراً صالحين. كانت البنت الأولى قد تزوجت بعدما رزقوا البنت التاسعة، وبعد سنتين

---

(١) سورة فاطر: (٤٣).

تزوجت الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، .... ولم يمض ثمان سنوات بعدما ولدت الأم البنت الثانية عشرة إلا ومجموع أولاد من تزوج من البنات بلغ واحداً وعشرين نفساً، أربعة عشر منهم ذكوراً.

ثم تابع زميلي الحديث قائلاً: ثم بدأ نفع الكبار منهم فقاموا في خدمة جدهم وجدتهم، وتلبية جميع طلباتهم، وكانوا بررة، بل عملوا في خدمة أجدادهم ما لم يفعله ولد الصلب من الحنان والشفقة واللطف وحسن المعاملة، وكم كنت أقول في نفسي – سبحان الحكيم العليم– رُزق الخال وزوجته هؤلاء الأولاد وبروا فيهم براً عظيماً وهم لم يتعبوا عليهم ولم يكلفوا أنفسهم مؤنة تربيتهم وملاحظتهم، وكم رأيتهم وهم يتسابقون في خدمة أجدادهم في الصباح والمساء، بل وحرص بعضهم على المبيت عندهم تحسباً لخدمة أو حالة تستدعي ، وكم رأيت الخال وهو يتهلل مغتبطاً مرتاحاً لخدمة هؤلاء الأولاد ، وقد قرّت عينه وسعد بهم، وكم أسمع عن زوجته أنها تقول: نعوذ بالله من الجهل، كم كنت أحزن أشد الحزن عندما أعلم أن مولودي أنثى؟ فأستغفر الله وأتوب إليه، فنحن وهبنا الله أولاداً بررة قد كُفينا مؤنة تربيتهم، والتعب عليهم. أهـ.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا ﴾[1].

---

(١) سورة النساء : (١٩).

القصة التاسعة عشرة

طرق أكثر من ثمانية عشر باباً للزواج

في عام (١٤٠٧هـ) جمعتني مهمة عمل برجل، ودامت المهمة أكثر من شهر، فحصل بيننا أنس وصداقة، فسألته قائلاً: علمتُ يا أخي الكريم أنك لم تتزوج، وأنت الآن في آخر العقد الثالث من عمرك فلماذا كل هذا التأخير ومثلك لا تخفى عليه المصالح الكثيرة في الزواج.

فتنهت صاحبي، ثم قال: آه ثم آه، لقد أثرتَ الشجون يا أخي، والله لقد تعبتُ من البحث والتحري حتى بلغتُ درجة اليأس وكرهتُ الزواج، فأنا منذ أكثر من سبع سنين وأنا أتقدم وأردّ، وهل تعلم يا أخي أني طرقت أكثر من ثمانية عشر باباً، وفي كل مرَّةٍ أقول لنفسي هؤلاء سيوافقون – إن شاء الله – ثم أفاجأ بعد مدَّة بالرد فيصيبني الحزن والأرق وطول التفكير، حتى تأتيني خواطر فأقول: هل قصدكم كذا، هل قصدكم كذا، وبدأت أشكك في أمورٍ كثيرةٍ، واتهمت نفسي وأخلاقي، والأهل من حولي، وكم كان يزيد في جرحي وحزني عندما يعاتبني بعض الأقارب والأحباب لماذا لا تتزوج؟ فأتحرَّج من شرح مجريات الأمور لكل أحد.

قلت لصاحبي – وأنا في حالة خجل لأني شعرتُ أني أحرجته- قلت: يا أخي أبشر بالخير ، فالخير ما اختاره الله للعبد ولا تيأس، واسأل ربك التوفيق وحسن العاقبة.

ثم انقطع الحديث بيننا ومضى من الأيام قرابة خمسة أشهر، وإذا بصاحبي يتصل بي يدعوني لحضور حفل زواجه ففرحت، ففرحتُ كثيراً ودعوت الله له بالبركة، ثم بعد الزواج بسنتين تقريباً قدرة الله، وإذا به مسرور يبشرني بمولود له ثم قلت له: كيف حالك وحال زوجك؟ فقال ما شاء الله، الحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة، أبشرك أني بنعمةٍ عظيمةٍ، لقد رزقني الله زوجةً قرَّت بها عيني من كل وجه، امرأة صالحة مؤدبة عاقلة، جميلة الخُلق والخَلق، حسنة المعاملة، جعل الله بيننا من المودة والرحمة ما به سعدنا، لقد أكرمتني وأكرمت أهلي، خاصة والديَّ فهما كبيران في السن بحاجة إلى عناية خاصة، وقد قامت بذلك على أتمِّ وجه والحمد لله، ووالله إني أحمد الله كل ما تذكرتُ معاناتي في ردِّ السابقين وأقول: الحمد لله الذي جعلهم لم يستجيبوا ، وأسأل الله دوام السعادة لي ولإخواني المسلمين ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1].

(١) سورة النساء: (١٩).

القصة العشرون

كره الزوجــة بعد الــزواج كرهاً عظيمــاً

قبل سنوات حدثني أحد المشايخ الأجلاء، ممن يتصدى للفتيا، والمشاركة في حلول بعض القضايا الاجتماعية، قائلاً: قبل سنتين أتى إليّ شاب ظهر عليه التعب الشديد، وتوتر الأعصاب، فطلب الانفراد بي، فلبيتُ له ذلك، ثم قلتُ ما عندك؟ فقال لدي مشكلة أقلقتني وأسهرت أجفاني، ونغصت معيشتي، فقلت: له ما هي؟ عسى أن يكون خيراً، فبدأ يتحدث بكل إعياء وهو يلتقط أنفاسه، وعيناه تذرفان، فقال: كنت مشتاقاً للزواج، فتقدمت إلى عائلة رأيت أنها تناسب وضعي الاجتماعي، فخطبتُ ابنتهم، فوافقوا، لكني بعد الدخول كرهتُ الزوجة كرهاً شديداً، وأشدّ ما أجد من الكراهية عندما أكون عندها، فاقتنعت أن الحل هو الطلاق، وأريد أن تُبين لي كيفية الطلاق، وماذا أفعل؟

فقلتُ له: هل أنت مقتنع من الزوجة قبل الدخول تمام الاقتناع، ودرست حالك؟ فقال: نعم بل ورأيتها ومقتنع من مناسبتها لي من جميع الوجوه. فقلتُ: هل كرهتها لسوء أخلاقها؟ أو لعيبٍ في خَلْقِها؟ فقال: كلا، لا يحل لي أن أظلمها، نِعْم المرأة في أخلاقها، لكن

الذي أصابني أمرٌ لا أعرف له سبباً .

فقلتُ مطمئناً له: ما دام الأمر كذلك فالأمر حله سهل إن شاء الله لكن يحتاج منك إلى صبر.

فقال: كيف ذلك؟ فقلت له: هذا الأمر الذي أصابك يعتري كثيراً من المتزوجين والمتزوجات، وهو أمر طبيعي، لأن الزواج تحول من حالة اجتماعية إلى أخرى؛ تحول إلى حالة غير مألوفة لدى كلا الزوجين، وهذا التحول له أعراض وهو ما تجده من الكره والتضايق، لكن ثق بالله أنه سيزول شيئاً فشيئاً فلا تعجل على الطلاق فالعجلة مذمومة، وثق يا أخي بقول الحق عز وجل : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [1] فأنت موعودٌ من الله الذي بيده خزائن السماوات والأرض بخيرٍ كثير، فلا تعجل، وحاول أن تسافر أنت وهي، فإن تغيير المكان له دور في تغيير النفسيات والأحوال، ولا يحصل لك الانفتاح والاندماج معها إلا في مثل السفر.

قال الشيخ الفاضل: وبعد خمسة أشهر أتى إلي ذلك الشاب يتهلل مبتهجاً مسروراً ، فقبلني ودعا لي، ثم قال: لقد فعلتَ فيَّ معروفاً كبيراً يا شيخ، وأسأل الله أن يقبل ما دعوتُ لك، فقلت

---

(١) سورة النساء : (١٩).

– الحمد لله – ذلك الفضل من الله ثم سألته عن حالته، وماذا صنع؟ فقال: أنا أعيش في سعادة، أعتقد أنها لم تحصل لغيري والحمد لله، لقد أخذت قولك ونصيحتك بالقبول، فقد سافرت أنا وزوجتي إلى المدينة النبوية، ثم أحرمنا بالعمرة، ومكثنا أياماً في مكة، ثم سافرنا إلى الباحة ومكثنا فيها عشرة أيام، ثم رجعنا إلى أهلنا فسبحان الله بعد يومين من السفر وجدت أني أتنفس الصعداء، إلا أن الكراهة تعتريني من حينٍ إلى حين، لكن أجد أنها تضمحل شيئاً فشيئاً حتى مضت قرابة أربعة أشهر وإذا الكره ينقلب إلى مودةٍ ومحبة، وكنت أشبه اضمحلال الكراهة في نفسي كذوبان الجليد البطيء ، والعجيب أني اكتشفتُ أن الزوجة هي الأخرى تعاني مما كنت أعاني منه، فاضمحلَّ منها كذلك والحمد لله، وأخبرك يا شيخ أني كنت سابقت على وظيفة عمل في إحدى الدوائر الحكومية قبل الزواج فلما وصلتُ الباحة ومكثتُ فيها ثلاثة أيام ذهبتُ إلى أحد أسواق التموينات، وإذا فيها لوحة لعرض الصحف والمجلات، فطالعتُ إحدى الصحف المحلية وإذا فيها ترشيح المسابقة التي تقدمتُ عليها، وإذا اسمي ضمن المرشحين فسررتُ كثيراً وحمدتُ الله، وقلتُ في نفسي هذا إن شاء الله من الخير الذي وعدني الله به، وأسأل الله المزيد من فضله في الدنيا والآخرة فقد كنتُ سابقت خمس مرات قبل هذه المسابقة ، فلم يتم لي ترشيح.

وأبشرك يا شيخ أني سعيد بزوجتي وهي سعيدة بي، فهي من أحب الناس إليّ، وأني أتطاول ساعات العمل التي تحجبني عنها، لذا أضطر إلى تكليمها مرةً أو مرتين لأسمع صوتها فقط، فالحمد لله الذي أبدل حالنا بخيرٍ فهو الجواد الكريم، وأسأله دوام السعادة والخير الكثير لي ولإخواني المسلمين والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً.

القصة الحادية والعشرون

الحزن العميق لطلاقها ينقلب سعادة عظمى

حدثني أحد الأصدقاء عن قصة امرأة من جيرانهم تزوجت في حدود عام (١٣٩٥هـ) ثم بعد بضعة أشهر طُلقت فحزنتْ لذلك حزناً عميقاً ، وكانت تقول: رأيت نفسي أني في مصيبة لم تمر على أحد من الناس في العالم، رأيت أن حياتي الزوجية قد انهارت إلى الأبد ، وكنت أقول في نفسي كيف أطيق كلام الناس أني مطلقة؟ ،وكأني أقرأ في وجه من يلقاني قوله (لماذا فشلت في الحياة الزوجية؟) فكاد البكاء والأسف وطول الندم يفطر قلبي، وكم أزعجت أهلي بالانطواء وعدم الأكل وطول السهر، لكن فرج الله قريب، ما لبثتُ أن تزوجت من آخر فسعدت به كثيراً وجعل الله بيننا مودة ورحمة ثم رزقت منه بأولاد ، وكنتُ أقول: سبحان الله! ما أجهل الإنسان حينما ينطوي على الحزن وطول السهر وإزعاج الأهل، لماذا لم أكل الأمر إلى الذي بيده ملكوت كل شيء ، ثم جادت قريحتها بهذه القصيدة:

الحمد لله محيي الخلق من عدم ... حمداً يليق بذي الجود والكرم

ربي لك العقبى في أمري ويا أسفا ... أني جزعت بما أجريت بالقلم

أستغفر الله من كل الذنوب وما ... قد زاد منها على الإحساس بالندم

الله أكبر كيف الجهل يصرفني ... عما يُقدره الرحمن من حِكَم

والله أكبر من نفس إذا كرهت ... أمراً تحوَّل بعد الكره للنعم

لو طابت النفسُ بالأقدار واتعظت ... كانت بإيمانها في خير معتصم

إني حزنت طويلاً حين طلقني ... بعلي وعاتبني القاصي وذو الرحم

أبكي ومن فرْط جهلي كنت يائسة ... أرجو الخلاص لنفسي لو إلى العدم

وحيدة في ليالي الحزن حابسةٌ ... نفسي عن الناس بين الهم والألم

سبحان من بدل الأحزان في فرحٍ ... وفرَّج الكرب بعد الضيق والسقم

كأنها غُمة كانت غشاوتها ... على العيون فلم تُبصر من الظُلم

زاحت عن الصدر والعينين وانطفأت ... نارٌ على القلب بالأفواه تضطرمِ

كأنني قد تركت النار هاربةً ... أمشي إلى جنة الدنيا على القدم

فالحمد لله أن كان الطلاق لنا ... شرعاً يُخلِّص من يشكو من النِقَم

فقد سعدت ببعل لا مثيل له ... ذو رحمة فاضلٌ بالدين ملتزم

لقد رُزقت بأولاد تقرُ بهم ... عيني وتنظرهم كالورد يبتسم

وأسأل الله ربي أن يساعدني ... على الوفاء له دوماً بلا سَأَمِ

يا أيها الأخت ما دمتِ بمشكلة ... من الطلاق لجرح غير مُلتئم

لا تكرهي الوضع إن الله يبعده ... عنك ويبعث من بالود ينسجمِ

وفي الختام صلاة والسلام على ... محمدٍ آخر الداعين في الأمم

القصة الثانية والعشرون

حزنــوا لما سجنــوا فكــان الخيــرة في ذلك

نسأل الله العافية، السجن كما يقال: مدرسة يوسف - عليه السلام- كم من شخص أُبتلي فرُمي وراء القضبان، وقد يكون مظلوماً أو ظالماً ولكن العبرة في النتائج، ولاشك أن للسجن - أيًّاً كان غصصاً وأحزاناً، والذي يعنينا في هذا المقام أن الحزن ينقشع - في الغالب- عن حسن عاقبة لمن وفقه الله، فكم من سجينٍ راجع نفسه، فكان السجن محطة تأملٍ وتفكيرٍ ومراجعة حسابات، فخرج بدرسٍ بل بدروسٍ قادته إلى النجاح طول حياته، وعرف أن مدرج الحياة فيه خفوسٌ وحبائل قد خفيتْ على منْ كان بصره طافحاً في السماء، فلا ينظر إلى موطئ قدميه، كما عرف الخِبَّ من الناس وخِبَّ نفسه... إلى غير ذلك من البصائر التي يستفيدها من وفقه الله.

روى لي أحد من سجن أن أمنيته الوحيدة في هذه الحياة هي حفظ كتاب الله، لينعم في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ويتلذَّذ بتدبره، وتغمره السعادة الإيمانية، لكن - كما يذكر- مشاغل الحياة حالت بينه وبين تحقيق ذلك، فلما أُودع في السجن في قضية

ما، حزن وتألم أشد الألم، عند ذلك تفرَّغ لدراسة القرآن وحفظه فحصل له ذلك بتوفيق الله بعد سنة وثمانية أشهر تقريباً، فكان يقول بعدما خرج: لو طلب مني من تسبَّب في سجني مكافأة سخية لدفعتها إليه دون تردد، وأنا الآن أدعو له وهو لا يشعر، لقد خرجت من السجن بأعظم كنز، وتحقق لي ما كنت أتمناه، وصدق الله العظيم ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

حدثني آخر فقال: كنتُ أهوى طلب العلم، وأحب المدارسة والفائدة العلمية وكنت إذا ضمني مجلسٌ فيه طلبة علم وتباحثوا أصابتني حسرة في عدم المشاركة، لكن التسويف وعدم حسن إدارة الوقت حرمتني من ذلك لما كنت اتقلب في الهواء الطلق، فلما حُصرت بين أربعة جدران متقاربة، حزنت لذلك حزناً شديداً، ثم فتح الله عليَّ حيث طلبت من السَجان بعض الكتب، فوضعتُ لنفسي جدولاً – بعدما أنهيتُ حفظ كتاب الله– هذه الساعة درساً في التفسير، وهذه في العقيدة، وهذه في الفقه، وهذه في القواعد الفقهية، وهذه في السيرة والتاريخ.. وهكذا فبعدما خرجت وإذا أنا – بتوفيق الله – لديَّ علمٌ غزير تفقهت في ديني وعرفتُ الحلال من الحرام بدليله، وأفدتُ واستفدتُ، ولولا الله ثم هذه الخلوة القصرية لما حصل لي كل ذلك، فلله الأمر من قبل ومن بعد، وصدق الله إذ

يقول : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ .

حدثني أحد الإخوة قائلاً: تورطتُ بشراء أرضٍ في مكة المكرمة سنة (١٤٢٣هـ) كنتُ أخذتُ أكثر قيمة الشراء ديناً من أشخاص، كما أدخلتُ آخرين مساهمة فيها، فكسدت الأرض، ولم يتحقق لي ما كنتُ قد خططته من ترتيب الأمور، وألحَّ عليَّ أصحاب الديون بطلب تسديدها وكذا المساهمون، وحزنتُ لذلك لأن الخسارة متحققة وكبيرة فرأيت أنه لا مناص من بيعها بأي ثمن، فقدَّر الله أن أُودعت السجن بتهمة أني دعمت أُناس مشبوهين، ويعلم الله أني برئ وليس لي علاقة بهم البتَّة، فأودعتُ السجن قرابة تسع سنوات وحصل لي من الحزن والقلق شيئ لا أكاد أصفه، فلما خرجتُ ونظرت في الأمر وإذا الأرض قد زادت أضعافاً كثيرة ولله الحمد، فتمَّ لي بيعها وإعطاء كل ذي حقٍ حقه، ونالني منها غنائم كثيرة، فسبحان الله ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ .

انتهى ما أردت تدوينه في هذا المبحث، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات